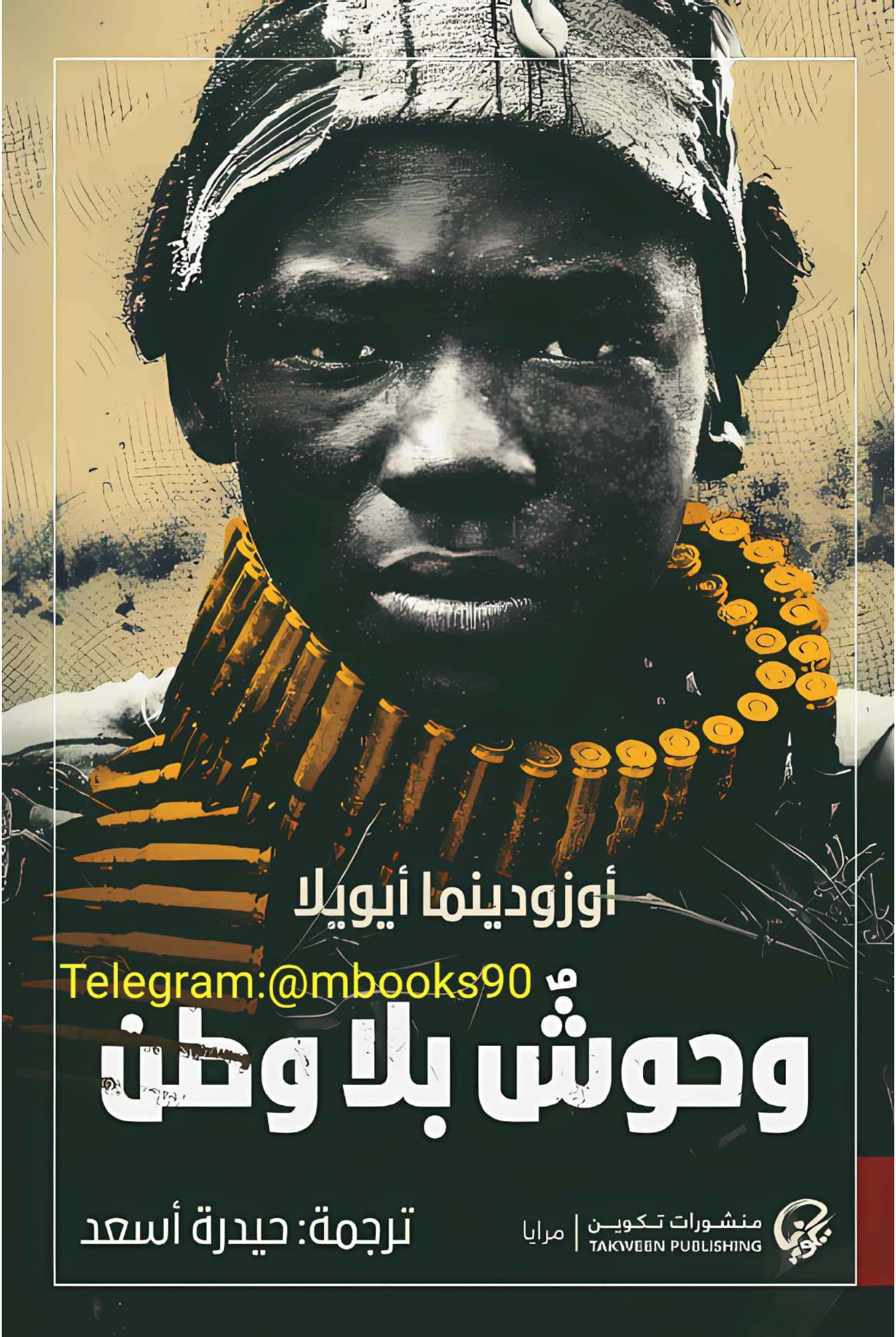

أوزودينما أيويلا

Telegram:@mbooks90

وحوش بلا وطن

ترجمة: حيدرة أسعد

منشورات تكوين | مرايا
TAKVEEN PUBLISHING

الكاتب: أوزودينما أيويلا
عنوان الكتاب: وحوشٌ بلا وطن
ترجمة: حيدرة أسعد

العنوان باللغة الأصلية: Beasts of No Nation
الكاتب: Uzodinma Iweala

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-20-9
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
BEASTS OF NO NATION
Copyright © 2005 Uzodinma Iweala
AII right reserved

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

إلى أولئك الذين عانوا...

«لفظتُ كلّ أمل إنساني في نفسي. وخنقتُ كلّ شكل للبهجة، ووئدتُ وئدةَ حيوانٍ مفترس».

رامبو | فصلٌ في الجحيم.

«هذه الانتفاضة ستطلق الوحش الكامن فينا».

من أغنية لـ (فيلا كوتي)، ومنها أقتبسَ عنوان العمل.

تقديم لا بدّ منه

لعبة الغُمّيضة الأخيرة

الطفل متوارٍ. بمّ بمّ بمّ. وهذا الصوتُ صوتُ قلبه، قلبه الذي لا يخفق إثارةً، لا يتوجّس ترقُّبًا لاكتشاف مخبئه، بل خوفًا من الموت، ذعرًا من أنّ، بعد بضع ثوانٍ، قد يتدحرج رأسه المقطوع، بضربة ماشيتي، على أرضيّة الغرفة المظلمة.

هكذا تبدأ روايتنا، على لسان آغو، الطّفل.

ولأنّ الحكايا التي يرويها الأطفال لا تخضع لمنطق الكبار، ولا لقوالب سالفة، على القارئ أن يتروّى قليلاً قبل أن يخوض في هذا العمل. ولكنّ السؤال الجدير هنا: ماذا يتوقّع القارئ من رواية على لسان طفلٍ؟

ليس الراوي الطّفل حدثًا فريدًا من نوعه في عالم الرواية، فقد قرأنا جميعًا «هكلبري فن» و«جزيرة الكنز» و«عدّاء الطائرة الورقيّة» وغيرها وتفاعلنا معها بلا مشقّة، لكنّ المختلف في روايتنا هذه هو أنّ الراوي لا يفتعل الطفولة بل يجسّدها، وأنّ حكايته التي يرويها، ببساطتها وتفكّكها وتلعثمها، تعكس لغةً طفوليّة عذبة، حقيقيّة، يتغلغل فيها الشّعرُ وتفرض جماليّاتها الخاصّة.

منطقُ النصّ ومزاجُ التلقّي

يقال إنّ لكلّ نصّ منطقًا خاصًا، هذا صحيح، وربّما أميلُ لتعبير ماري أوليفر أكثر: «القصيدة؛ ذلك الوحش الصغير... له مزاجه الخاصّ». وبصرف النظر عن أنّ نصّنا هنا ليس قصيدة – على الأقلّ حتّى هذه اللحظة، مَن يدري؟ - بل رواية تفترض مقاربتها وفق مزاج يتماشى مع مزاجها وإلّا سيغدو العمل عسيرًا غيرَ مستساغ، بل قد يبدو رديئًا.

لأنّ روايتنا طفلٌ، والطفل لا ينمّق حديثه، لا يلقي بالًا لتكرار الكلمات، يستخدم يديه ليشير إلى شكل شيءٍ في عقله أو يقلّد، بما أوتي من مهارات النطق، أصواتَ الأشياء التي سمعها، ولأنّه طفل، أيضًا، يستخدم الزمن الحاضر لوصف الماضي،

والمفرد للتعبير عن الجميع، ولأنّه طفل، أيضًا، ثمّة أشياء كثيرة لا يعرفها... لكنّه سيبذل قصارى جهده، في لحظات الاحتدام الشعوريّ، للبحث في معجمه الفتيّ عن كلماتٍ تسعفه، عن كلمات سينتزعُها بحدّة من سياقاتٍ اعتادها القارئ.

ولأنّ الطفل يكبر، ربّما بين يومٍ وآخر، لا سيّما إذا كان يترعرع بين أجمات الأدغال وعجلات الشاحنات، تحت المطر اللاسع وعلى المقاعد الخشبيّة التي لا تخلو من شظايا مؤلمة، ستكبر لغتُه شيئًا فشيئًا، وسيتسع أفق السرد أكثر فأكثر.

صدى الأصوات العمياء

لا نعرفُ اسم البلد الإفريقيّ الذي تجري فيه أحداث الرواية. ليس افتقارًا إلى أسماء الأمكنة بل هروبًا من قيد التأويل الجغرافيّ إلى كلّ رحاب العالم، كلّ الرحاب التي وطأتها قدمُ إنسان، وجرّت معها ويلات... وحروب.

مزجَ أوزودينما أيويلا في صوت الطّفل، الذي لا يفارقنا أبدًا، صوتَ الابن اليتيم بكلّ البراءة الممكنة، الذي لا مفرّ من التعاطف معه، بصوتِ القاتل الجزّار الذي لا يرتوي ظمؤه إلا بالدم، والذي، لسوء الحظّ، لا مفرّ من التعاطف معه هو الآخر. مزجَ صوتَ الشاعرِ الطّفل إذ يقتنصُ لحظات المعنى في الديجور والشظف والجوع، بصوتِ الصديقِ الوفيّ الشجاع والفتى التوّاق لتقمُّص الرجولة.

القسوةُ تعبّد الدرب

سيذهب الكاتبُ، في رسم مصير الطفل، إلى أقاصي الوجع الممكن. والطفلُ، إذ يخبرنا بما قاسى وكابد، يرسم درب آلامِ الطفولة حين تطحنها الحرب والوحشيّة. طفولة الأزمنة جميعها والأمكنة جميعها، في الشرق والغرب، إذ تنهشها مخالبُ البربريّة والشرّ. بعض محطّات هذا الدرب الوعر ستقسو على قارئها بشكلٍ يدعو للتساؤل: ماذا حدثَ إذاً لمَن عاش الأمر، لا قرأ عنه فحسب؟

حُوّلت هذه الرواية إلى فيلم صدرَ عام ٢٠١٥ ولاقى شهرة وحفاوة، ورغم قدرته على استثمار مادّة النص بشكل جيّد، لكنّه جاء مختلفًا من نواحٍ عديدة، عبر ما طرأ على الشخصيّات والأحداث من تعديلات مهمّة، إضافة إلى ما ارتأه صنّاع الفيلم في

اصطناع حبكة ذهبت بالفيلم إلى دلالاتٍ سياسيّة.

المترجم

بدأ الأمر على هذا النحو. أشعرُ بحكة كأنَّ حشرة تزحف على جلدي، وبعدها أشعر بوخز في رأسي، تمامًا بين عينيّ، ثم تنتابني رغبة في العطاس لأنَّ أنفي يحكُّني، والهواء ينفخ في أذنيّ وأسمع أشياء كثيرة: صرصرة حشرة، هدير شاحنة كأنَّها حيوان، وبعدها صراخ شخص، فلتتخذوا مواقعكم الآن! بسرعة! بسرعة بسرعة! تحرّكوا بسرعة! أسرعوا هيّا! صوتٌ يمشّ جسدي كسكين.

أفتحُ عينيّ، والضوء يحيط بي من كلّ مكان ويجتاز ثقبًا في السقف نحو الظلام، عابرًا فوق جسدي مثل شبكة. حين يغمرني الضوء، أشعر بجسدي يرتعش مثل فأر صغير في زاوية الغرفة. رائحة المطر ممتزجًا بالعرق تتسلل إلى أنفي، لأحسّ معها بقميصي المبلَّلِ؛ وقد صارَ أشبه بجِلدٍ آخرَ فوق جلدي. أريد أن أتحرّك لكن عظامي كلّها تؤلمني، وعضلاتي تؤلمني كأنَّ نملة نار تلسعني في كل أنحاء جسدي. لو استطعتُ صفعَ نفسي كي أتخلّصَ منها، لفعلتُ ذلك؛ لكني عاجزٌ عن تحريكِ إصبعٍ واحدةٍ. لذا لا أفعل شيئًا.

أسمع وقع أقدام من حولي في كل الاتجاهات، حتى إخال أنّ والدي سيأتي ومعه الدواء لوقف كلّ هذه الحكة والألم. أستدير لأتمدّد على ظهري. يعلو صوت الخُطى أكثر فأكثر حتى بتُّ أسمعها أكثر ممّا أسمع صوتَ تنفّسي ونبضات قلبي. تم تام، تم تام، تم تام، أسمع الصوت أعلى، فأعلى، فأعلى، حتى أرى ظلًا يغطي الضوء تحت الباب.

أحدهم يطرق. دق دق. لكنّي لا أجيب. يزداد غضبهم كثيرًا ويأخذون في الركل والضرب إلى أن يهتزّ المكان برمته وينهار السقف قطعًا صغيرة ليدخلَ المزيد من الضوء. يتشقق الخشب في كل مكان فأسمع بيم بيم وأرى مزلاج الباب يسقط في دلو بجوار قدميّ. يصطدم الصوت بالجدار ويرتدّ هنا وهناك، عبر شبكة الضوء، حتى يبدو الأمر كما لو أنَّ الصوت يدفع الباب إلى أن يفتحه وينتشر وهجٌ غامر. وهج! يدخل عينيّ الكثيرُ من الوهج، ويصبح كل ما أراه بقعًا أرجوانيةً. بعد ذلك، أرى عينًا صفراء تنتمي إلى جسد قصير داكن له بطن كبير وساق رفيعة كساق عنكبوت. هذا الجسد نحيل جدًا لدرجة أن سرواله القصير يتأرجح حول ساقه مثل تنوّرة نسائية،

وقميصه يتدلّى على كتفيه كالفستان. تكافح رقبته كثيرًا لتتمكّن من رفع رأسه الكبير الذي لا يكفّ عن التحرك في هذا الاتجاه أو ذاك.

أنظر إليه. ينظر إليّ. لا يبدو متفاجئًا لرؤيتي على الإطلاق رغم أني أتفاجأ لرؤيته، لكن ملامح وجهه تتغيّر ويصبح قاتمًا. يتنشّق مثل كلب ويخطو نحوي. باوا! يضربني.

يضربني مرات ومرات، وأحسّ مع كلّ لكمة تلامس جلدي بأنّ يده تشبه نصل الماشيتي(1). أحاول الصراخ لكنّه يعتصر صدري ويصفع فمي. أتذوّق الدم. أرغبُ بالتقيؤ. يهتزُّ المكان برمته من حولنا، وبمجرّد هزّ رف الفاكهة المتعفّنة يبدو أنّه سيتكسر إلى قطع كثيرة ويسقط فوقنا. يمسك بساقي ويسحبها بقوة شديدة كأنّها ستُقتلع مثل قطعة من اللحم، فيما يُجرُّ جسدي ببطءٍ خارج الحجرة، نحو الضوء والوحل.

في الضوء، أستعيدُ أنفاسي وأبذل جهدًا لأملأ صدري بالهواء وأبدأ بالسعال وعيناي تغرورقان بالدموع. أرى العالم بأسره ينبسط أمامي وأنا أتطلّع إلى السماء الرمادية وهي تتحرك بطيئةً فوق أعلى ورقات شجرة الإيروكو الشاهقة. تحتها عدّة أشجار صغيرة تناوشُ بعضها بعضًا للتسلُّق نحو الشمس. كلّ الأوراق تقطر بمياه المطر وتتلألأ كالجواهر أو الزجاج. الأعشاب النامية بجوار الطريق طويلة ولونها الأخضر مختلف عن لون أيّ عشبٍ رأيته من قبلُ. يدفعني ذلك إلى التفكير بالابتهاج والرقص والصياح والغناء لأنني أوبا! لأنني ميتٌ أخيرًا. قد يكون هذا الصبي روحًا وعليّ أن أشكره لأنه أعادني إلى أرض الأرواح. لكنه ابتعدَ قبل أن أفوهَ بكلمة، وتركني مستلقيًا على ظهري في الوحل.

أستطيع أن أرى الجزء السفلي من شاحنة مركونة بالقرب مني. ثمة شاحنتان تسدّان الطريق بأكمله، والكثير من الشاحنات الأخرى مركونة إلى جانب الطريق، مغطاةٌ بقماشٍ رثّ للغاية ومليء بالثقوب. والطلاء متقشّر فوق الصدأ الغزير كالدم يجعلني أرى الشاحنة مثل حيوان جريح. يحيط جنودٌ كالأشباح بكل هذه الشاحنات. بعضهم يرتدي زيًّا مموّهًا وآخرون يرتدون قمصانًا وسراويلَ ولكن هذا لا يهمّ لأن كل الثياب بالية وتغزوها ثقوبٌ كبيرة. بعضهم ينتعل أحذية حقيقية والبقية ينتعلون

أخفافًا. بعضهم واقفٌ بكامل يقظته، الساقان مستقيمتان كأنّه بلا رُكبتينِ. والبعض يقضي حاجته خلف الشاحنة والبعض الآخر بين العشب. جميعهم تقريبًا يحملون السلاح.

يركض الصبيّ الذي ضربني إلى الشاحنة الأولى. وحين يصل إلى الباب، ينحني بظهره المستقيم وساقيه الممدودتين. يتحرّك رأسه فحسب، بمعزل عن رقبته، للأمام والخلف واليسار واليمين. ثم يقف فجأة وبسرعة كبيرة، وينفتح باب الشاحنة ضاربًا الصبي عند بطنه الكبير، ليحلّق مثل عصفور في الهواء ليقعَ على مؤخرته في بركة الماء على الطريق. صوت قادم من جهة الجنود الآخرين. إنّه صوت الضحك.

Telegram:@mbooks90

أظلّ مستلقيًا هنا رغم رغبتي بالنهوض، لأنّ جسدي يؤلمني وأخشى إن تحرّكتُ أن يبادر أحدهم إلى إيذائي بقسوة.

يهبط رجلٌ من الشاحنة. يبدو كأنّه القائد. أحدّق في الرجل وفي سترته المتهالكة، التي تفرقت منها خيوط خضراء تتحرّك جيئة وذهابًا مع كلّ شهيق وزفير. يرتدي قفّازًا متسخًا لونه أقرب إلى الأصفر أو البنيّ، وتتدلّى قبعته الموضوعة عند إبطه المتعرّق لأنّها مبللة تمامًا بعرقه.

أراقبه وهو ينتقل من شاحنة إلى أخرى. الشاحنة قديمة لدرجة أن الطلاء يتقشّر عنها، والإطار منخفض جدًا لدرجة أنّه ينخفس عند ركله. يتابع الجنود الآخرون كلّ تحرّكاته؛ حتّى أولئك الذين يحملون بنادقهم وعلى استعداد لإطلاق النار، يتابعونه بأعينهم وهو ينظر إلى كلّ شاحنة. ينتقل ببطء كشخصٍ مهمّ حتّى يتأكد أنّ كل مَن ينظر إليه يعرف أنّه الزعيم. وأحدّق أنا أيضًا.

بمجرّد أن يروا القائد يبتعد عن الشاحنة الأخيرة، يحيطون به ويتحركّون على غرار حركاته. يتبعونه نحوي. ظلالهم تحوّطني وأرجلهم تحاصرني كقفص. لا ينطق أحد بأيّة كلمة أمّا الرجل فيعضُّ باطن خدّه، وينظر إليّ كأنني نملة أو حشرة من هذا القبيل. يسأل، من عثر على هذا الشيء؟ لكن لا أحد يجيب.

ثم يقول بصوت أعلى، لماذا هذا الشيء على الأرض؟

الصبي الذي عثر عليّ يعود من كوخي حاملًا بعض الموز الأسود كسواد الطريق. يبعد بيده الفاكهة عن فمه ويمشي نحو الرجل الكبير الذي يناديه، ستريكا. هل أنتَ من وجد هذا الشيء؟ يومئ الصبي برأسه عدّة مرات ليظهر سعادته بأنّ الرجل يعرف أنّه هو مَن فعل.

هاه! ستريكا؟ أأنت؟ يقول الرجل. هيييي! همم! يصرخ ثم يستدير نحو الجنود الآخرين ويشتمهم. إذًا هذا يعني أنّ من بينكم كلكم أيّها الرجال الكبار فإنّ هذا الصبي، هذا الصغير النحيل، هو من وجد هذا الشيء هنا.

لا أتحرّك، القائد يرفع ذراعيه إلى السماء. يصرخ بقوّة: أين عثرت عليه؟ ويعلو صوته كما لو كان ملتصقًا بحنجرته. يشير ستريكا بذراعه نحو الكوخ. هل هذا صحيح؟ يقول الرجل هازًا رأسه كأنّه لا يصدّق ذلك. شششششش أنت! يصرخ. أين الملازم؟ الملازم. الملازم! ويجيب صوت آخر: إنّه في الأدغال.

يهتزّ العشب ويأتي رجلٌ من هناك حاملًا سرواله بيد وبندقية بيد أخرى. بشرته الصفراء تشعّ كالذهب والعرق يلمع على لحيته. يركض نحونا ويتوقف حين يراني ويبدو في غاية الارتباك. يلقي التحية بكسل، بخلاف الجنود الآخرين الذين يبدون غير قادرين على ثني أي جزء من أجسادهم.

سيدي القائد! يصرخ بصوت أقرب للأنين. يقول القائد: تعال هنا. تعال هنا، حتى يقترب الملازم من القائد الذي يصرخ: ماذا تفعل؟ لا يقول الملازم شيئًا. ألا تعرف؟ أرجوك يا سيدي. كنت أخرأ في الأدغال! يمسك القائد بأذن الملازم حتى يلوي الرجل وجهه من شدة الألم. افتح أذنيك واسمعني جيدًا، يقول القائد. إذا أردتَ أن تخرأ، فلا تخرأ بوجودي! من تظن نفسك؟ تركض إلى الأدغال مثل امرأة. إذا أردت أن تخرأ، فاخرأ هنا على الطريق! ليس عليك أن تغادر هذا الطريق من أجل أيّ شيء. هل تفهمني يا ملازم؟ يومئ، نعم نعم، ويحاول كل الجنود كتم ضحاكتهم فيخبطون بأقدامهم أو يسعلون أو يتظاهرون بالعطاس.

هل يمكنك أن تخبرني ما هذا، يقول القائد مشيرًا نحوي. لماذا تركت أمره إلى ستريكا؟

يا إلهي. ماذا فعلتُ، يقول الملازم. إنه جاسوس. هذا كمين. دعنا نقتل هذا الصبي ونخرج من هذا المكان.

أغلق فمك، يصرخ القائد. من طلب إليك أن تتكلم؟ أحمق. إذا اقترب أيّ شخص، فسنمنحه المعاملة التي يستحقها.

ثم يبدأ الجميع بالضحك، بمن فيهم القائد، وبينما يحدث هذا أرى كيف يبدو الملازم كلّه رغبة في قتل القائد. يغمغم مع نفسه ويضرب يده بقبضته.

يجثو القائد قربي ويبتسم. ألاحظ الأسنان في فمه، مصفرّة مع فجوة هنا وفجوة هناك. لثته سوداء وعيناه شديدتا الاحمرار. يخرج أنفه على شكل بصيلة مدوّرة عند ذروته الملتصقة بشفته البنية المنتفخة. يمد قفّازه إلى وجهي ويمسكه بقوة ورفق كما لو أنّه يعتني بي، ثم ينظر إلى كل الدم والأوساخ ولدغات البعوض والطين على جسدي نتيجة جرّي على الطريق. يطقطق بلسانه ويخاطب ستريكا: هل كنت تحاول أن تأكله أم ماذا؟ يهزُّ ستريكا رأسه نافيًا. منذ أن عثر عليّ، لم أتمكّن من سماع هذا الصبي يتحدّث أبدًا.

الآن بتّ أعرف ستريكا والقائد والملازم. لكن هناك الكثير من الأشخاص الذين لا يقولون شيئًا أبدًا لدرجة أني أتساءل عما إذا كانوا يعرفون كيف يتحدّثون. يلتفت القائد إلي. هل تريد بعض الماء، يقول بلطف، لكني لا أجيب لأنني أطفو فوق جسدي وأراقب فحسب. تتغير ألوان العالم من حولي وأسمع الناس يتحدثون ولكن بلغة مختلفة. أطفو بعيدًا مثل ورقة على سطح الماء حتّى برررر! أشعر بالبرد والبلل يطالني بالكامل، ثم أحسّ بجسدي ثقيلًا جدًا.

ستريكا، يقول القائد. اذهب واجلب المزيد من الماء. يركض ستريكا إلى الشاحنة الأخيرة ويقفز صاعدًا. القائد يخاطبني: هل أنت جائع؟ هل أنت عطشان؟ ولأنني أشعر بالتحسّن وذهني أصبح أكثر صفاءً، ألمس بطني وأومئ برأسي: نعم.

يقول: حسنٌ لا مشكلة. إذا كنت تريد الطعام فسوف تأكل. وإذا كنت تريد الماء فسوف تشرب، ولكن عليك أوّلًا أن تخبرني ما اسمك. كيف لي أن أتناول الطعام مع

رجل لا أعرف اسمه؟ هل تسمعني؟ أومئ إليه مجددًا، لكن الكلمات تظلّ عالقة في فمي دون أن تخرج.

أنت تحمل اسمًا، أليس كذلك؟ يقول واضعًا وجهه لصقَ وجهي. أحاول جاهدًا أن أتذكّر، أن أعصر عقلي بحثًا عن اسمي، لكني لا أتوصّل لأي شيء. يغضب القائد الآن ويشير إلى نفسه. اسمي القائد. لطالما دعاني الجميع بالقائد. وأنت بماذا يدعوك الجميع؟

أهزُّ رأسي في محاولة للتذكر فيما كان القائد يمدّ يده إلى حزامه ويريني مسدسًا أسودَ بهذا الحجم تقريبًا. أريد أن أبكي وأشعر بحاجة للتغوّط، لكني أعرف أنني إذا فعلت ذلك فسيقتلني، لذا أهزّ رأسي وأنظر إلى عينيه الحمراوين لأتذكّر فجأة كيف كان الجميع في قريتي يدعونني آغو لأنّ أبي كان يناديني بهذا الاسم. أهمس: آغو، اسمي آغو، يصعب عليّ التحدث بشكل صحيح، ثم ألاحظ القائد وهو يرفع يده عن المسدّس ويبتسم. يقول: آغو هاه؟ يدعونك آغو. حسن، هذا ما سأناديك به. أتنفّس من جديد ورأسي لا يؤلمني كثيرًا لأنني أفكّر، المجد للرب في الأعالي لأنني ما زلتُ حيًّا.

ترتسم الابتسامة ببطء على وجه القائد وهو يلتفت نحو جنوده ويقول: انظروا إلى هذا الذي في الطريق. هل ترونه؟ يصرخون بأجمعهم: نعم نعم، فيما يلمس القائد لحيته ويستخدم أظافره ليزيل القشرة من بين أشعاره. ينقّل نظره من جندي إلى آخر ويلتزمون الهدوء جميعًا.

اجلب الماء هيّا! يصرخ، ويناوله ستريكا جركنًا أزرق بغطاء أحمر. يأخذ القائد منديلًا قذرًا من جيب صدره ويبلله ببعض الماء. ثمّ يمسك بمؤخرة رأسي ويفرك وجهي قائلًا: حسن، إذا كنت ستأكل مع رجل، فلا بدّ أن تكون نظيفًا. أشعر بالماء يخترق كلّ خدوشي ولدغاتي وجروحي، ويلسعني بشدّة. أريد أن أصرخ، لكنه يبتسم ولسانه بين أسنانه كأنّه ينظف كنزًا قديمًا عثر عليه. عطشان جدًّا. أمسك الجركن، لكن القائد يرفعه عاليًا في الهواء ويسكب الماء على وجهي وفي فمي. له طعم البلاستيك والكيروسين. أشعر بحبات رمل صغيرة في فمي، لكني أتمكن من ابتلاعها.

جعلني ذلك أشعر بحالة جيدة إلى حد ما.

ينخر الملازم ويخبط بقدميه. يقول لي القائد: لماذا تستلقي على جانب الطريق مثل فأر ميت؟ الملازم يظنّ أنك جاسوس. هل هذا صحيح؟

يتمتم الملازم بشيء ما ويحدّق بي كأنه يريد أن يقطّعني إربًا في مكاني. ماذا كنت تفعل هنا؟ يصرخ الملازم بي.

اصمتْ! ينهره القائد. من طلب إليك أن تفتح فمك الغبي هذا؟ ثم يخاطبني قائلًا: ما الذي كنت تفعله هناك، في ذلك الكوخ الصغير؟ عليك أن تخبرني. هل أنت جاسوس؟ إن لم تتكلّم، عندها هيييي! ويتناول سكينًا من غمده المربوط على ساقه. سكين له مقبض أسود ونصل أسود باستثناء حافته التي تلمع بحدّة لدرجة أنها تبدو قادرةً على قص الشعرة من منتصفها تمامًا. اللمعان يعمي عينيّ ويخيفني. يقول: وإلا فسأكتفي بأن أعطيك للملازم. ألقِ نظرة عليه. حتّى أنا لا أعرف ماذا سيفعل بك. من الأفضل لك أن تخبرني حتى أتمكن من مساعدتك.

ترفّ عيناي من حدّة السكين. أشعر عند النظر إليه بأنّ لساني يتقطّع ويوشك أن يقول كذا وكذا. قال لي أبي اهربْ، أقولُ للقائد. اهربْ بعيدًا حتى لا يمسك بك الأعداء ويقتلوك. لذا اختبأتُ في الأدغال وركضتُ في هذا الطريق وذاك دون أن أعرف شيئًا.

ينخر الملازم من جديد.

همم. حقًا؟ يسألني القائد. أين والدك؟ ينحني الجنود الآخرون إلى الأمام ويقتربون بأعينهم مني، كأنّ نظراتهم حشرات تستعدّ للدغي.

لا أعرف، أقول وأنا أحاول جاهدًا ألّا أبكي كي لا يعتقد هؤلاء الناس أنني غبي. قال إنه سيعثر علي.

يمصّ القائد شفته ويلمس وجهي بهدوء ورفق. يمسك يدي ويُنهضني على قدميّ. هل تريد أن تصبح جنديًا؟ يسألني بصوت ناعم. هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

أتذكّر ما قبل الحرب، حين كنتُ في المدينة برفقة أمي ورأيت رجالًا يسيرون بزيّهم الرسمي الجديد وسيوفهم اللامعة، يحملون سلاحًا ويصرخون: يسار يمين، يسار يمين، على صوت الأبواق والطبول، كما في المواكب العسكرية، لذا أومئ برأسي: نعم.

إذا بقيت معي، فسوف أعتني بك وسنقاتل العدو الذي أخذ والدك. هل تسمعني؟ يتوقّف ويلعق شفته. هل تسمعني؟ كلّ شيء سيكون على ما يرام، يقول وشفته قريبة من أذني لدرجة أسمع معها صوت اللعاب في فمه. أنظر فأرى ابتسامته وأشعر بيده على وجهي تلمسني بلطف. أرى كلّ الجنود يحملون بنادق وسكاكين، ثم أفكّر بوالدي وهو يرقص على ذلك النحو بفعل الرصاصة.

ماذا عليّ أن أفعل؟

أنضمّ. هكذا فجأةً. أنا جنديّ.

يقول الملازم: لا تفكّر، دعِ الأمر يحدث! يقول إنّك بمجرد أن تتوقّف عن التفكير بالأمر، يصبح رأسك مثل لبّ فاكهة متعفنة.

يقول القائد إنّ الأمر يشبه الوقوع في الحب. لا يمكنك أن تفكّر به. ليس عليك إلا أن تقوم بذلك.

وأنا أصدّقه. ماذا بوسعي أن أفعلَ أيضًا؟

كلهم يقولون: كفّ عن القلق. كفّ عن القلق. قريبًا سيأتي دورك وستعرف ما هو الشعور الذي ينتابك حين تقتل شخصًا ما. ثمّ يضحكون عليّ ويبصقون على الأرض بجوار قدميّ.

توقّفنا على الطريق، وجلستُ مع ستريكا في الجزء الخلفيّ من إحدى الشاحنات، نركل الهواء بأرجلنا ونتعرّق جرّاء الشمس. تنفخ الريح بلطف في أذني وتلامس بشرتي وأنا أنظر إلى ستريكا وأفكر في كل الأشياء التي أتعلّمها كجندي. أتعلّم المسير، يسارًا يمينًا، يسارًا يمينًا، وكيف أختبئ في الأدغال وأبقى ساكنًا حتى لا يتمكّن أحد من تحديد مكاني، كيف أمشي قدمًا أمام الأخرى بحيث لا يسمعني أحد، الركض والقفز والتدحرج على الأرض وترديد كل أغاني الجنود أثناء المسير والعمل. أحبّ الرجال الأكبر سنًّا وكيف يحملون السلاح ويبدون أقوياءَ دائمًا، كما في الأفلام، وأحاول أن أتصرف مثلهم، لكنّي في بعض الأحيان أفكر ببيتنا وأمي وأبي وأختي وأشعر بالأسى. وأفكّر بستريكا وأتساءل لماذا لم ينطق كلمة واحدة طوال الوقت منذ أن صرت جنديًا. إذا طرحت عليه سؤالًا، يكتفي بهزّ رأسه، نعم أو لا. لذا فأنا أسأله طوال الوقت، حتى الآن ونحن جالسان هنا ننتظر، هل أنت ستريكا؟ يومئ نعم. هل لديك أب وأم؟ يهز برأسه لا. هل تحب الموز؟ يومئ نعم. السمك؟ نعم. الكمثرى؟ نعم. هل أنت غبي؟ لا. لماذا لا تقول شيئًا؟ لا يجيب. ما هو الشعور الذي ينتابك عند قتل شخص ما؟ لا يجيب. ستريكا! ينظر إليّ.

ثم يصرخ أحد الحرّاس، يدعونه هوب، ويركض في الطريق. يصرخ عائدًا من الأدغال، إنّهم قادمون أوه! إنّهم قادمون مرّة أخرى! يتعثر في ركضه وهو يصعد التلّة، وتستمرّ عضلاته بالتحرك حتى بعد أن يتوقّف، لذا فلا يستطيع البقاء ساكنًا.

بندقيته تصطدم بظهره كما لو أنّها تضربه كي يركض أسرع، أسرع، أسرع، وأنا أضحك لأنه لا يبدو كرجل مجنون فحسب، بل كحصان مجنون أيضًا.

يرتعد القائد حين يرى الحارس يركض للنجاة بحياته على هذا النحو أعلى التلّة. أه! يقول وأنا أشاهدُ كيف يشبك يديه وكيف تزحف الابتسامة على شفتيه. يبدأ القائد بالتعرّق وأرى قميصه مُبتلًا بالعرق. يتركه الملازم بمفرده ويبدو أنه يبحث عن مكان للاختباء. القائد غارق في التفكير وأنا أحب مراقبته وهو يفكّر. يمسح شعره الكثيف بإحدى يديه ويمسك لحيته بالأخرى ويمشي صعودًا ونزولًا وذهابًا وإيابًا كأنه في قفص رغم أننا نقف في الهواء الطلق فعلًا. ثم يصدر أوامره. حرّك هذه الشاحنة لتقطع الطريق! اركن هذه الشاحنة هنا! الزموا مواقعكم! أنت الذي في الأدغال، أسرع، أسرع! بسرعة. بسرعة بسرعة. نتحرّك جميعًا لتنفيذ كل ما يقوله. نتسبب في الكثير من الجلبة وتهرب الحيوانات الصغيرة من الأدغال إلى الطريق. سحالٍ وفئران أدغال وضفادع، كلّها تركض وتثبُ وتقفزُ. تركض في أنحاء الطريق كدجاجات بلا رؤوس، بحثًا عن مكان للاختباء. يقفز ستريكا للأعلى والأسفل ويمسك الماشيتي ويركض خلف إطار الشاحنة التي تسدّ الطريق. أتبعه لأنني لا أعرف إلى أين أذهب، وأقف وراء العجلة الخلفية لأن المساحة خلف العجلة الواحدة لا تتّسعُ لاثنين. الجميع يتحرك ويندفع ويقفز ويختبئ ويحدث ضجيجًا حتى يهدأ الوضع في كلّ مكان، ويبدو أن كل ما في الأمر هو شاحنة تعطلّت على الطّريق. حتى قبل الحرب، كان هذا يحدث دائمًا، والآن يحدث ذلك بشكل أكبر لأن الحرب تجعل إصلاح الأشياء صعبًا جدًا.

أجلس خلف هذا الإطار، بيدي سكين وأنتظرُ. أرى البعوضات في كل مكان، تتحرك في دوائر كأنها تنتظر شيئًا ما. إذا اقتربت مني فسأسحقها بيدي، لكن ذلك لن يجدي نفعًا. هناك الكثير منها.

من وراء إطاري، ألقي نظرة خاطفة على الطريق، يبدو الهواء متموجًا، كما يحدث حين ترمي حجرًا في مياه ساكنة. ثم أرى شاحنات صغيرة تسير ببطءٍ شديد كالأبقار. إنهم لا يشكّون بوجود أي خطر، أكاد أضحك وأكاد أموت لأنّ قلبي يخفق

بسرعة كبيرة وأفكّر فيما سيحدث. إنهم لا يعرفون حتّى أننا هنا وأنهم في طريقهم إلينا كالحمقى.

تتوقّف الشاحنة الأولى على بعد أمتار قليلة من المكان الذي أختبئ فيه. أنظر من جانب الإطار إلى عين السائق. نافذته تلمع تحت أشعة الشمس الغزيرة ولكنها بطريقة ما تبدو معتمة. بجانبه رجل يرتدي زيًا عسكريًا ويشير بيديه. وجهه منكمش من الخوف ويبدو أن شفته تسحب كامل وجهه وأنفه وعينيه وحاجبيه نحو الأسفل. يتبادلان النظرات ثم يختفي السائق خلف عجلة القيادة. أتذكر الجنود الذين دخلوا إلى قريتي وأنا أحكم قبضتي على الماشيتي. أحبُّ أن أشعر به في يدي كما لو كان جزءًا من جسدي. أنظر إلى الرجل وإلى ستريكا وأقول لنفسي: إن كان وقت القتل قد حان فأنا مستعدّ، لكنني أضع يديّ بين ساقي لأني بحاجة للذهاب لقضاء حاجتي. قلبي يخفق بوم بوم. بوم بوم. ويشقُّ علي التنفس، لكنني ما زلت أقول إنّ الرب سيساعدني. أنا مستعدّ.

أراقب.

الأعداء لا يحاولون القتال حتّى، إنهم يشاهدون فحسب، متعبون جدًا لدرجة لا يستطيعون معها التفكير في شيء كالقتال، أي المزيد والمزيد من المتاعب. ورغم أنهم لم يروا أيًا من جنودنا على الطريق، فإنهم يقفزون من شاحناتهم ويبدون على وشك البكاء. يصرخ الرجل الذي يرتدي الزي العسكري: أرجوكم لا تطلقوا النار علينا! ليس بحوزتنا أي سلاح أو طعام أو مال أو ذخيرة. لا شيء! أرجوكم دعونا نمضي!

أحصيهم. عددهم عشرون فحسب، ويبدو أنّهم ماتوا بالفعل. الدماء تغطي كل ملابسهم وجلدهم، وأحيانًا أعينهم، ولكني لا أستطيع أن أعرف ما إذا كانت دماءهم أو دماء أشخاص آخرين. يسيرون ببطء شديد كما يسير عجوز يتعكز على العصا.

قائد الأعداء يصرخ: انظروا. انظروا. أيادينا مرفوعة وليس معنا سلاح. لا سلاح على الإطلاق.

ساد الصمت قبل أن أسمع القائد يصرخ من جهة العشب بجانب الطريق: أولًا، هذه

الأرض ملك لنا جميعًا أيها المتمردون. ثانيًا، اخلعوا ملابسكم وضعوها على الطريق. ثالثًا، استلقوا ووجوهكم إلى الأرض وأيديكم ممدودة. إذا لم تفعلوا ما قلته خلال عشر ثوان فسأطلق عليكم الرصاص. هل تفهمون؟

أشاهد الأعداء ينظر أحدهم إلى الآخر، وأبدأ العدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، وصولًا إلى عشرة، لكنهم لا يخلعون ملابسهم. ثم أسمع بووم كما لو أن مجموعة من الأشخاص قد سقطوا في الوقت نفسه، ثم أسمع بننن عندما أصابت الرصاصة الباب المعدني لشاحنة العدو. ينظر الأعداء بعضهم إلى بعض ويتهامسون حتى يصرخ القائد من الأدغال: هيا! قلت اخلعوا ملابسكم! على الجميع أن يخلع ملابسه الآن فورًا!

يخلع الأعداء ملابسهم بسرعة كبيرة، ما عليهم سوى تمزيق القمصان والسراويل وإلقائها على الأرض. أجسادهم تلمع بالعرق تحت الشمس والبعوضات تقترب منهم ببطء. بعضهم يرتدي ملابس داخليّة مليئة بالثقوب التي تغطي أعضاءهم بينما يضطر البعض الآخر إلى تغطيتها بأيديهم.

تمدّدوا! يصرخ القائد. ضعوا أيديكم على الأرض. يتمددون وأتمكّن من رؤية الدمعة على وجه أحد الأعداء. أراه يسعل ويشهق ويهمس. أظنّه يقول: لا أريد أن أموت. أرجوك يا إلهي. لا أريد أن أموت. لكنّي بعيد جدًا عن سماعه. أظنّ أنّ هذا ما يقوله وأنا أنظر إليه شاعرًا بالأسف، ولكني أتذكر بعدها والدي.

يخرج القائد من الأدغال متعرّقًا، يبتسم وهو يحمل بندقيته مستعدًا لإطلاق النار على كلّ مَن لا ينفذ أوامره. وراءه، يخرج الجميع من الأدغال من كل جانب فلا يبقى مهرب لأولئك الرجال. يخرج ستريكا من خلف إطاره، فأتبعه. يجمع ملابس الأعداء ويأخذها إلى الشاحنة.

البعوضة تقترب. تقترب أكثر.

من الزعيم؟ يصرخ القائد ولا أحد يجيب. يمشي ويستخدم سلاحه للكز العدو الذي تكلّم أولًا وراح يتوسل ويتوسل: أرجوك لا تطلق النار علينا! أنت. أين سلاحك؟ يصرخ. انهض. أين سلاحك؟

يقول الرجل: أوه لا نريد المتاعب. ليس معنا أي سلاح. لكن القائد يقول: أوهو! هذا العدوّ الكلب لا يريد المتاعب. يصدر عن الجميع، باستثنائي أنا وستريكا، ضجة، يضحكون كيهي كيهي كيهي، كأنّها أفضل نكتة في العالم.

ثم يركل القائد هذا الرجل، العدو، على بطنه بقوة شديدة فيسقط على ركبتيه ويتقيأ على الأرض.

يصرخ القائد: فتّشوا الشاحنة، فتّشوا الشاحنة! يركض ثلاثة جنود لتفتيش الشاحنة. ثم يخاطبني القائد: آغو، تعال هنا. تعال هنا الآن. ثم يأمر زعيم العدو أن يركع رغم أن الرجل راكع بالفعل ويتقيأ. أقف حيث أنا ولا أشعر إلا بالخوف. لا أريد أن أقتل أحدًا اليوم. لا أريد أبدًا أن أقتل أيّ أحد.

يا لك من أحمق، يقول لي. تعال هنا وأحضر ذلك الماشيتي. لكني واقف لا أتحرّك. يقترب القائد مني ويمسك رقبتي. أيها الأبله، يصرخ. تعال هنا! تعال هنا الآن! يجرّني نحو الجندي العدو. هل ترى هذا الكلب! يصرخ. تريد أن تكون جنديًا، أليس كذلك؟ إذًا... اقتله. اقتله الآن!

أبدأ بالبكاء والارتجاف. داخل رأسي أصرخُ: لا! لا! لا! لكن فمي لا ينفتح ولا أقولُ شيئًا. وأفكّر، إذا قتلت، إذا قتلت الرجل، سأذهب إلى الجحيم، أشمّ رائحة النار والدخان وأكافح لالتقاط أنفاسي، لذلك أظل واقفًا في مكاني أبكي وأبكي، وأرتجف وأرتجف، وأنظر وأنظر. ثم أرى فجأة أحد جنود العدو يحاول الهروب إلى الأدغال. عضوه يقفز للأعلى والأسفل ومؤخرته تهتز، ثم أسمع طلقة نارية وأرى لحم ساقه متناثرًا على الطريق. يسقط على الأرض لكنه لا يقول شيئًا حتى، لا يصرخ ولا يصيح ولا يبكي، ما زال يتحرّك، يسحب بذراعيه جسده العاري وساقه الوحيدة كأنه ما زال بإمكانه الهروب. يكفّ الجميع عن النظر إليه، لكني أسمع صوت حركته مثل سحلية تزحف على السطح. أرتجف وأمسك عضوي. أشعر برغبة في التقيؤ.

لا أحد يتحرّك. يصرخ القائد: إذا حاول أي شخص الهروب فلن يكون لديه ساقان يركض بهما. هل هذا مفهوم؟

أرجوك يا سيدي. أرجوك. نحن لا نفعل شيئًا، يتوسّل زعيم الأعداء وهو على الأرض، ويبدو مثل بقرة لأنه يضع يديه على الأرض وتنفّسه أشبه بالصوت الذي يصدر عن البقر. أرجوك يا سيدي، والدموع تسيل على وجهه. تمتزج بعرقه وترفّ عيناه كثيرًا. أرجوك يا سيدي. لا تقتلنا. خذونا كأسرى حرب. أرجوك. لا نملك شيئًا.

سيّدي، يقفز أحد الرجال من شاحنة العدو ويصرخ مخاطبًا القائد الذي يرفع عينيه عن زعيم العدو ويشاهد الجندي يرمي أربعَ بنادق، اثنتين كبيرتين وأخريين صغيرتين. يفتحون أيديهم ليظهروا أنّهم لم يعثروا على أيّ شيء آخر. تومض عينا القائد ويصفع جندي العدو بظهر يده.

أنت كذّاب! يصرخ وينهال بالضرب عليه مرارًا ومرارًا ومرارًا. يا لك من كذّاب وأبله. أحمق.

أشاهد الرجل وهو يسقط على يديه وركبتيه ويبصق دمًا على الطريق. يركله القائد وأسمع صوت دوم دوم يطرقُ داخل رأسي. يفتح سرواله ويخرج عضوه وهو يقول لي: انظر يا آغو. انظر كيف نتعامل مع هذا العدو. وأسمع صوت سسسس فيما أرى كيف يكزّ القائد على فمه وأسنانه ويعصر عينيه وهو يتبول فوق جسم العدو.

آآآه، يقول وهو يغلق سرواله والجمع يضحكون كيهي كيهي كيهي. انظروا إلى هذه العنزة اللعينة. انهض أيها الأحمق! على ركبتيك. هيّا. على ركبتيك.

لا أحدَ من الأعداء يرفع نظره عن الأرض. بعضهم يتبوّل مما يجعل الهواء ذا رائحة كريهة. أبصق لأنّ هناك الكثير من اللعاب في فمي.

اقتله، يقول القائد في أذني وهو يرفع يدي القابضة على الماشيتي عاليًا. اقتله، هيّا!

يقول لي العدو: أرجوك لا تقتلني. أرجوك إنني أتوسل إليك. أرجوك. الرب سيباركك. في كلّ مرة يتفوه بها يتناثر اللعاب والدم في كلّ مكان. ثم يبدأ بالتبول ولا يتمكن من التحكّم بنفسه.

هل ترى هذا الرجل، يقول القائد، انظر إليه. إنّه ليس رجلًا حتى. يتبوّل مثل عنزة

أو خروف أو كلب. يمسك برقبتي ويهمس في أذني: اقتله الآن، ليس لدي الكثير من الوقت. إن لم تقتله، هه، سيعتقد الملازم أنك جاسوس. ومن يدري إن اكتفى بأن يقتلك فحسب. يضغط على يدي حول مقبض الماشيتي وأشعر بالخشب في أصابعي وراحة يدي. قتله كقتل العنزة. ما عليك إلا أن ترفع يدك عاليًا وتضربه جيدًا، بإحكام.

يأخذ بيدي ويهوي بها بقوة على رأس العدو وأشعر كأنّ الكهرباء تسري في جسدي كله. يصرخ الرجل: آيييييييي، بصوت أعلى من صوت الرصاص، ثم يرفع يده إلى رأسه لكن ذلك لا يفيده بشيء لأن رأسه يتصدّع والدم يتسرب منه مثل الحليب الذي يسيل من ثمرة جوز الهند. أسمع الضحك من كل الجهات حولي، بينما أشاهده وهو يحاول الإمساك برأسه المتصدع. يزعجني ذلك فأرفع الماشيتي وأهوي به، أرفعه وأهوي به، بشش بشش في كلّ مرة، وأرى كل شيء ورديًا بينما أسمع الضحكات من حولي: كيهي كيهي كيهي.

ثم أنهال على كتفيه وصدره وأرى القائد يبتسم في كل مرة تضرب فيها سكيني هذا الرجل. ينضمّ ستريكا إلي ونركله ونقطعه بينما يضحك الجميع. يبدو الأمر كأن العالم يتحرك ببطء شديد وأنا أرى كل قطرة دم وكل قطرة عرق تتطاير هنا وهناك. أسمع الطيور ترفرف بأجنحتها وهي تغادر الشجرة بأكملها. الصوت أشبه بالرعد. أسمع طنين البعوض العالي في أذني وأشعر بأن الدم يبلّل ساقي ووجهي. هنالك جرح عميق أحمر في كل مكان على جسد العدو، وجبهته تبدو مهشمة تمامًا إلى حدّ يجعل وجهه لا يبدو كالوجوه؛ لأنّ رأسه محطّم في كل أجزائه وليس هناك سوى الدماء، والدماء والدماء.

أتقيأ في كلّ مكان. لا أستطيع منع نفسي. يقول القائد إن الأمر يشبه الوقوع في الحب، لكنني لا أعرف ما يعنيه ذلك. أشعر بمطرقة تدقّ على رأسي وصدري. أنفي وفمي يحكّانني. أرى كل الألوان في كل مكان وأشعر بفراغ في بطني. أحسّ بشيء يزداد قسوةً بين ساقيّ. هل هكذا هو الوقوع في الحب؟

ثم أسقط على الطريق وأراهم يقتلون الجميع، يقطعون ذراعًا ويستخدمونها لضرب رأس شخص آخر. وأشاهد الرجل المصاب برصاصة في ساقه لا يزال يزحف

على الطريق كأن بوسعه الذهاب إلى مكان ما. ساقه تترك أثرًا مثل سيارة يتسرب منها الوقود. وأرى البعوضات في كل مكان تطير في دوائرَ من حولنا.

لستُ فتى شريرًا. لستُ فتى شريرًا. أنا جنديٌ، والجندي لا يكون شريرًا عندما يقتل. أقول هذا لنفسي لأن على الجنود أن يقتلوا، ويقتلوا، ويقتلوا. لذلك إذا كنتُ أقتل، فأنا لا أفعل إلا الصواب. أردّدُ أغنيةً في سِرّي لأنني أسمع أصواتًا كثيرة في رأسي تقول لي إنني فتىً شريرٌ. تأتي هذه الأصوات من كل مكان حولي وتطنّ في أذنيّ كالبعوضِ، يختنق قلبي ويصيبني الغثيانُ كلّما سمعتها. لهذا أُغنّي:

يا جنديٌ يا جنديٌ

اقتل، اقتل، اقتلْ!

هكذا أنت تحيا،

هكذا أنت تموت.

تلك هي الأغنية التي أغنّيها دائمًا، في كل مكان نذهب إليه، لأذكّر نفسي بأنني أفعل ما يُفترضُ أن يفعله الجندي فحسب. لكن هذا لا ينجح أبدًا، لأنني أشعر دائمًا بأنني فتى شرير. لذلك أفكّر، كيف يمكنني أن أكون فتى شريرًا؟ أنا، الفتى الشرير – الفتى الذي يعيش حياة مثل حياتي ويخشى الربَّ طوال الوقت.

تعلّمت القراءة في سن مبكرة على يد والديّ. حين كنت صغيرًا جدًا، حتى قبل أن تولد أختي، كنت أجلس برفقة أمي على أرضية المطبخ وأشاهدها تغسل كل الأطباق. في المساء، كنت أجلس دائمًا على الأرض وأراقب مؤخرتها المرتفعة عاليًا في الهواء وصدرها يلامس ركبتيها وهي تبذل جهدًا لجعل المطبخ نظيفًا للغاية، حدّ أنّ الذبابة لا ترغب في وضع بيوضها داخله.

أحبُّ القراءة كثيرًا لدرجة أن أمي تناديني بالأستاذ. أشدُّ فستانها فتقول لي: أمهلني دقيقتين فحسب يا أستاذ، دقيقتين فحسب. ثم تغلق الباب وتمسك بيدي ونحن نسير إلى الغرفة الرئيسة. هناك، كان أبي على الدوام نائمًا أو يستمع إلى الراديو، لذا كنا نمشي بهدوء ونحضر أعواد الثقاب من الطاولة الخشبية في منتصف الغرفة ونشعل المصباح تحسّبًا لانقطاع الكهرباء. كل هذا يثير انزعاجي لأنها تستغرق وقتًا طويلًا حتى تصل أخيرًا إلى رفّ الكتب وتتظاهر بالبحث عن الكتاب الصحيح.

كان الرفّ يحتوي العديد من الكتب بأحجام وألوان مختلفة –أحمر وأصفر وأزرق وبني– ولكن الكتاب الذي أردتها دائمًا أن تختاره، الكتاب الوحيد الذي أردت أن أسمعه هو الكتاب الذي يحمل كل الكتب الأخرى، الإنجيل الأبيض الكبير. كنت صغيرًا جدًا وكان الكتاب كبيرًا جدًا لدرجة أنني بالكاد أستطيع أن أحمله. لكني كنت أستمتع بنعومة الغلاف والأحرف الذهبية التي كتب بها العنوان: الكتاب المقدّس. كان هذا كتابي المفضل بسبب جمال شكله، وبسبب كل القصص التي يحتويها. كلّما لمسته أمي صرختْ: هذا الكتاب، هذا الكتاب، فتقول: شششش اخفِض صوتك كي لا توقظ أباك. كنت أجلس في حِضنها على كرسينا المفضل، نحدّق في الحروف الصغيرة جدًا على الصفحة. كانت تقرأ من فوق كتفي وأشعر بشفتيها تتحركان قرب أذني مع كل كلمة تقولها. تقرأ أمي ببطء شديد لأنها ليست معلّمة مدرسة كأبي الذي يعرف الكثير عن الكتب. لم تذهب إلى المدرسة لفترة كافية مثل أبي، لكنها تقول دائمًا: أعرف ما يكفي لقراءة الكتاب الوحيد المهمّ. ولهذا السبب يحبّها القش كثيرًا.

تقرأ لي كيف قتل قايين أخاه هابيلَ، وكيف زار الرب إبراهيم، وعن يونس الذي عاش داخل بطن الحوت. كانت تقرأ لي أيضًا كيف جعل الرب أيوب يعاني كثيرًا وكيف كافأه في النهاية، وكيف قتل داوُد جلياثَ. في كل مرة تقرأ فيها هذه القصة كنت أتخيّل نفسي هناك وأرى كيف يلمع جنود الجيش بالذهب والبرونز تحت الشمس وكيف يضحك جلياث إلى أن يقطع داوُد رأسه. أرى كل هذه الأشياء بينما هي تقرأ وأفكر في أنني أريد أن أصبح محاربًا. وطوال الوقت الذي تقرأ فيه والدتي، كنت أشير إلى كل كلمة وأسألها ما هذه وما تلك، لتجيبني وأتمكنَ من التعلّم. كنا نفعل ذلك كل مساء حتى أن تقول أمي: حسن يا آغو، يكفي هذا القدر الآن. لقد تعبث عيناي.

في غياب والدتي، كنت أذهب إلى الرف لأقرأ الكتاب المقدّس بمفردي. كانت أمي لا تزال تقرأ لي كلّ ليلة، لكني تمكّنتُ أيضًا من القراءة وحدي، وعندما يعود والدي من العمل، يجلس على كرسيه المفضل مرتديًا قميصه الداخلي وسرواله القصير، ويستمع إلى الراديو، كنت أسارع للجلوس معه، وليس مع أمي، وأقرأ عليه ما تعلّمته بنفسي من الكتاب المقدّس. أردت أن أظهر له أنني كبير بما يكفي للذهاب إلى

المدرسة كي أتمكن من تعلّم كل شيء يعرفه، ويجعل كلّ أبناء القرية يحبّونه كثيرًا. كل يوم كنت أسأله: هل أستطيع الذهاب إلى المدرسة غدًا؟ هل أستطيع الذهاب إلى المدرسة غدًا؟ وكان يجيبني: انتظر، انتظر فحسب. هاه. آغوا! لماذا تريد أن تكبر بسرعة؟ بعدها كنتُ أذهب إلى والدتي وأتوسّل إليها كي تساعدني في الالتحاق بالمدرسة. كنت أرغب بذلك كثيرًا لدرجة أنني كلّما بكيتُ لجعل والدي يأخذني إلى المدرسة، كانت تقول لي إنني إذا بكيتُ بهذه الطريقة فسوف يضحكون عليّ هناك. لذلك، عندما يعود والدي إلى البيت، كنت أسأله عن مدرسته التي يدرّس فيها، ثم أسأله عمّا إذا كنت كبيرًا بما يكفي. كان يطلب مني أن أرفع يدي اليمنى وأضعها فوق رأسي حتى ألمس أذني اليسرى، لكنني كنت أصغر من أن أستطيع القيام بذلك، لذا كان يقول لي: آغو، أنت غير مستعدٍّ لذلك بعدُ.

ثم يأتي يوم أركضُ فيه نحو والدي وأقول له: انظرْ! وأضع يدي على رأسي وألمس أذني. يبتسم ويقول: حسن، ونذهب في اليوم التالي إلى المدرسة الابتدائية، حيث الجميع يرتدي زيًا موحدًا عبارة عن سروال قصير أحمر وقميص أبيض للفتيان؛ وتنورة حمراء وقميص أبيض للفتيات. كنت أنظر إليهم جميعًا، يحمل كل منهم دفترًا أحمرَ اللون وقلمًا من نوع بيرو ويقفون في طابور الصباح بصمت. كان جميعُ الأولاد حليقي الرأس، وكل الفتيات لديهن ضفائر، وبدا الجميعُ متشابهين. أردتُ أن أرتدي الزيّ الموحد وأحمل دفتري الأحمر وقلمي البيرو لذا وقفتُ هناك أراقب، وكنتُ متوترًا للغاية.

اصطحبني أبي إلى السيدة غلوريا مديرة المدرسة، وسألها إذا كان بإمكاني الالتحاق بها، لكنّها راحت تسأل: هذا الصبي؟ أليس صغيرًا جدًا؟ وكنت أنظر إلى بطن السيدة غلوريا السمين للغاية وخديها الكبيرين وأردت أن أقول: أنا صغير جدًا لأنك أنت كبيرة جدًا فحسب، لكن والدي يقول: لا. إنه ليس صغيرًا، وكان على السيدة غلوريا أن تستقبلني لديها.

ولأنّ والدي كان معلّمًا، ووالدتي اعتادت أن تقرأ لي دائمًا من الكتاب المقدّس، فقد كنت قادرًا على القراءة بالفعل؛ بينما كان الأطفال الآخرون يحاولون أن يتعلموها.

كنت الأذكى في صفي، ذكيّ جدًا لدرجة أن الشيء الوحيد الذي عليّ تعلّمه هو الكتابة. وعندما رأت السيدة غلوريا مدى ذكائي، نقلتني إلى صف أعلى في المدرسة الابتدائية، لذلك كنت أجلس على مقعد بجانب أشخاص أكبر مني. وفي حين لامسَ كل الطلاب الآخرين الأرض بأقدامهم وهم جالسون على مقاعدهم، تأرجحتْ ساقايَ نحو الأمام والخلف في الهواء.

كانت المدرسة عبارة عن بناء كبير واحد يحتوي سبورة في مقدمة الصف. هناك تقف السيدة غلوريا حين تعطي دروسها. يتلقى كل الطلاب دروسهم في هذه الغرفة الواحدة، لذلك درّست المعلمة غلوريا كلَّ الصفوف حتى السادس الابتدائي. دائمًا ما كانت تحمل مسطرة خشبية كبيرة تستخدمها لضرب المشاغب على رأسه. في بعض الأحيان، خلال النهار، نقضي وقتًا هادئًا بينما يتعيّن على الطلاب الأصغر سنًا أن يضعوا رؤوسهم على مقاعدهم وعلى الطلاب الأكبر سنًا أن ينسخوا الدرس في دفاترهم. لطالما أنجزتُ دروسي في البيت، وخلال وقت الهدوء كنت أجلس وأفكر في أشياء مختلفة. أحببتُ التفكير بكلّ ما أقرؤه في الكتاب حتى يحين وقت اللعب. ورغم أنني أتلقى دروسي مع الأطفال الأكبر سنًا، كنت ألعب دائمًا مع كل زملائي في الصف. كان لديّ صديق عزيز جدًا، أبوه مهندس، أي أنهم من أثرياء القرية. صديقي اسمه دايك. كان أطول مني رغم أننا في نفس العمر، ولا يزال أعزّ أصدقائي.

لكن هذه الأشياء كانت قبل الحرب، وأنا أتذكّرها كالأحلام. أرى مدرستي وكل أصدقائي. أرى السيدة غلوريا وشعرها المجعّد المستعار بلونه الأسود، والذي كانت تعدّله باستمرار لأنه لا يثبت على رأسها بشكل جيد. بعضهم كانوا يكرهون السيدة غلوريا ويسخرون منها دائمًا من خلال دفع بطونهم الكبيرة وتقليد مشيتها كالعنزة السمينة، لكني أحببتُ السيدة غلوريا وهي كانت تحبني. دائمًا كانت تقول لي بلطف، وأنا أغادر الصف بعد مساعدتها في التنظيف: آغو، ادرس جيدًا. ها؟ إذا درستَ بجدّ، ستتمكن من الالتحاق بالجامعة وتصبح طبيبًا أو مهندسًا.

كل هذه الأشياء التي أخبرتني بها دائمًا، جعلتني أشعر بالسعادة لأنني كنت أرى كيف يُعامل الطبيبُ والمهندس. كنت أضع هذه الأشياء في رأسي وأتذكرها باستمرار،

ولكنني لم أسمح لها بأن تأخذ الكثير من وقتي عندما كنت صغيرًا. فبعد الحديث معها بهذه الطريقة كل يوم، كنت ألعب مع كل أصدقائي في ساحة المدرسة. كان لديّ العديد من الأصدقاء في قريتي لأن كل الأطفال الآخرين كانوا يعتقدون أنني فتى لطيف وأنني الأفضل في كل الألعاب وفي كل الدروس التي نتعلّمها. لذا كانوا جميعًا يحبونني ويريدون أن يصبحوا أصدقائي، لكن الشخص الذي كان يحبني حقًا وكنت أحبه حقًا هو صديقي العزيز دايك. كنا نفعل كلّ شيء معًا في القرية. وبعد أن نذهب من عند السيدة غلوريا، كنت أرافق دايك إلى وراء ساحة المدرسة للعب كرة القدم في الغبار المتطاير مع بعض الصبية الآخرين، كنا نلعب بكرة واحدة مسطحة لا تصلح للركل أبدًا، أو نخوض سباقًا أفوز به دائمًا، كنت أطير ذهابًا وإيابًا في ساحة المدرسة رغم أنني أرتدي خفًا فحسب. أحببتُ المدرسة كثيرًا وكنت أفكّر دائمًا في الذهاب إليها في اليوم التالي، إلى أن جاءت الحرب ولم يعد هناك مدرسة لأنّه لم يعد هناك حكومة.

أذهب دائمًا إلى الكنيسة، كلّ أحدٍ، ولكن قبل ذلك كنت أذهب أولًا إلى مدرسة الأحد وأجلس في الخارج تحت ظلّ شجرة كبيرة في أرض الكنيسة مع كل زملائي في الصف وأحيانًا مع أختي، في حال لم تسبب الكثير من المتاعب، ونستمتع إلى النساء اللواتي يقرأن لنا المزيد من قصص الإنجيل عن يسوع ويوسف النجّار ومريم ويخبزننا بضرورة أن نكون حذرين وأن نختار الطريق الأصعب بدلًا من الطريق الأسهل. وبعد ذلك نتلو صلاة الغفران وصلاة أبانا، ونردد أيضًا العديد من الترانيم لأنّ الرب يحب الموسيقى أكثر من الكلام، لذلك حين نغني فهو يستمع إلينا بشكل أفضل. كُنّ يخبرننا أيضًا أن الرب يحبّ الأطفال كثيرًا وأنه يراقبنا في كل وقت. أحيانًا، بعد انتهاء مدرسة الأحد، أذهبُ إلى الكنيسة الرمادية الكبيرة وأجلس مع أبي وأمي اللّذين يرتديان ملابسهما الجميلة ونستمع إلى القس الذي يصرخ ويتصبب عرقًا. كانت هناك شظية على المقعد الخشبي ظلّت تؤذي مؤخرتي بينما تهتزّ مروحة السقف بشدة كأنها على وشك أن تسقط وتقطع رأسي. كنت أشاهد النساء يرقصن كثيرًا كثيرًا وتتأرجح فساتينهن ويضطررن إلى تعديلها مرارًا وتكرارًا ويواصلن الغناء بصوت عالٍ للغاية عندما يحين الوقت ليضعن أموالهن في طبق التبرعات.

أما الرجال فكانوا يخبطون بأقدامهم ويخفضون رؤوسهم حتى تلامس ذقونهم صدورهم.

وفي يوم الأحد، هناك شيء آخر كنا نقوم به في قريتي. حين لا يكون هناك مدرسة أو واجبات منزلية، نلعب أنا وأصدقائي كل أنواع الألعاب. أحيانًا نمثل أننا كبرنا ونقوم بأشياء الكبار مثل قيادة السيارات والطيارات أو نتظاهر بكوننا أطباء أو ملّاحين. وأحيانًا نمثل أننا جنود كالذين نشاهدهم في الأفلام، نحمل العصي ونستخدمها كبنادق لنطلق النيران على بعضنا البعض ونسقط في كل مرة متظاهرين بأننا قد متنا. كلما لعبنا هذه الألعاب تغمرنا المتعة ونضحك ونركض ونصرخ ونقفز في كل شوارع القرية. يراقبنا الأطفال الصغار ويرغبون في أن يصبحوا مثلنا وحتى الكبار ظلوا يراقبوننا ورغم أنهم يصرخون علينا للتوقف عن إحداث كل هذا الضجيج، فأنا أعرف من الطريقة التي يصرخون بها من خلال أسنانهم أنهم يكتمون ابتساماتهم لأنهم أرادوا أيضًا أن يكونوا مثلنا تمامًا. وهكذا كنا نلعب كل هذه الألعاب في ذلك الوقت، معتقدين أن كونك جنديًا هو أفضل شيء في العالم لأنّ البندقية تبدو فتاكة جدًا والرجال في الأفلام يبدون أقوياء وشجعان جدًا حين يقتلون الناس، لكني أعرف أن كونك جنديًا يعني أنك ضعيف ولست قويًا، وأنك لا تحصل على طعام ولا تأكل ما تريد، ويعني أيضًا أن هناك أشخاصًا يجبرونك على القيام بأشياء لا تريدها، وأنك لا تفعل الأشياء التي ترغب بها كما يفعلون في الأفلام. لكني لم أعرف ذلك بالطبع إلا الآنَ، بعد أن صرت جنديًا.

لذلك أغني لنفسي:

يا جنديٌ يا جنديٌ

اقتل، اقتل، اقتلْ!

هكذا أنت تحيا،

هكذا أنت تموت.

وأتذكر الأشياء التي فعلتها قبل أن أصبح جنديًا فأشعر بالتحسّن. إذا كنت قد

فعلت كل تلك الأشياء الجيدة والآن أفعل ما يجب على الجندي فعله فحسب، فكيف يمكن أن أكون فتى شريرًا؟

حلَّ الصباح من جديد، صباح يشبه باقي الصباحات. بسرعة كبيرة تقفز الشمس إلى السماء وسرعان ما نتعرق ونتعرق من كل مسامٍّ أجسادنا. هناك العديد من الأشجار حولنا لكنها بعيدة جدًا بحيث لا تمنحنا شيئًا من ظلالها. أسحقُ العشب تحت قدميّ وأنظر إلى انتشار آثار أقدامنا البارحة في كل مكان. لقد جفَّت في الوحل ويبدو كأن مباراة كرة قدم قد حدثت هنا الليلة الماضية، لكني أعلم أن هذا لم يحدث أبدًا، لأنَّ لا أحد يلعب كرة القدم أثناء الحرب.

قدماي تؤلمانني. ساقاي تؤلمانني. ركبتاي تؤلمانني لأننا نخضع لتدريبات قاسية. كل الوقت تدريب، وتدريب فقط. يأمروننا بالركض من هنا إلى هناك، فنركض من هنا إلى هناك، كأننا في سباق الركض الذي خضناه أيام المدرسة. يأمروننا بالزحفِ على العشب والجري بخط متعرج لتفادي الطلقات المزعومة. أشعر بالحرّ وجسدي متعب. لا أشعر أنني بخير على الإطلاق.

أنا لا أحبّ كل هذا التدريب رغم أن القائد يحبّه حقًا، ويقول إنه يضع حدًا لأيّ عصيان. أنا لا أحبّ كل ما يحبّه القائد حتى لو كان يجب علي ذلك. لكني أحب جبهته اللامعة وأنفه الكبير الذي يغطي وجهه بالكامل وحتى شفته العلوية. أحب شاربه ولحيته السوداء الكبيرة، ويعجبني كيف يعصر ذقنه بكامله داخل قبضته حين يستغرق في التفكير. أريد أن تكون لدي لحية كي أفعل مثله. ربما حينها سأشعر بأنني أكبر سنًا ولن أحس بالتعب طوال الوقت. إذا رأيتَ القائد فستعرف أنه رجل كبير جدًا رغم أن الحرب تأتي لتجعل الرجال صغارًا مثل الأطفال والأطفال صغارًا مثل الرُّضَّع. إنه طويل جدًا لدرجة أن النظر إليه يشبه تسلّق شجرة، ضخم جدًا لدرجة أنه إذا وقف بجوارك سيحجب ظلُّه الشمسَ، قويّ جدًا لدرجة أنني أستطيع أن أرى العروق في ذراعيه. من المضحك مشاهدته وهو يتحرّك لأنه يمشي وكأن ساقه عمود خشبي لا ينثني لأي شيء. قبل الحرب، كنت أرى الجنود يتحركون على هذا النحو أثناء استعراضهم العسكريّ في البلدة القريبة من قريتي لذا فأنا أعرف أنه جندي حقيقيّ. وحتى حين نركض تتحرك ساقاه بهذه الطريقة وهذا يضحكني، لكن لا أحد يضحك لأنَّ هذا يزعجه، وهو يضرب الأشخاص الذين يزعجونه. وفي إحدى المرات قتل رجلًا أزعجه كثيرًا. تركنا هذا الرجل في مكانٍ ما على جانب الطريق

وثمّة ثقب كبير في رأسه، وعيناه مفتوحتان على وسعِهما.

وبينما نقف في هذا الميدان، يمرُّ أمامنا القائد ويصرخ: هل نحن جنود؟ فنقول: نعم سيدي! هل نحن جيش؟ هل نحن أقوياء وفخورون؟ فنقول: نعم سيدي! نعم سيدي! ويبتسم، لكنّي أعلم أنه لا يصدّق ما نقوله لأنه يتمتم أحيانًا بأننا يائسون ولا نصلح إلا للموت في أرض المعركة.

لا أعرف لماذا يغضبه دائمًا أننا لا نتصرّف كجنود حقيقيين. نحن لا نبدو حتى كجنودٍ حقيقيين. عددنا يقارب مئة وعشرين ونظلّ واقفين باستعدادٍ ولا نرتدي زيًا متشابهًا فيما بيننا. بعضنا يرتدي زيًا أخضرَ مموهًا مثلما يفعل الجنود الحقيقيون لكن زينا الخاص ممتلئ بالثقوب وخيوطه الممزقة في مهبّ الريح تتحرك لهذه الجهة وتلك. عندما نقتل جنديًا أو نجد جُثثًا ما زالت عليها ملابس، فبيننا دائمًا ثمّةَ من يتشاجرون، وأحيانًا يتقاتلون لأجل سرقتها. بعض الجنود يرتدون بناطيلَ سودًا وقمصانًا سودًا مع شرائط حُمرٍ على الأذرع، وهو اللباس المخصص للشرطة قبل الحرب. هذا الزيّ ليس جيدًا لأنه يجعلك تشعر بالحرارة الشديدة تحت الشمس، ويجعلك مرئيًا بسهولة في النهار، ولكن لا أحد يهتم لذلك. الجميع لا يريدون سوى ارتداء شيء يشبه الزي الموحد إلى حد ما. أما أنا فليس لدي هذا النوع من اللباس لأنني صغير جدًا. أرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا حصلت عليه من القرية التي نهبناها يومًا. كنت أرغب حقًا بارتداء بنطال طويل كي يمنع البعوضَ من لدغ ساقيّ؛ لكني لم أعثر على واحدٍ بحجم صغير يناسبني. على أي حال، فأنا أحبُّ قميصي حقًا رغم اتّساخهِ واضطراري إلى طيّ كُمَّيهِ ست طيّاتٍ. أحبه رغم أنه كبير جدًا لدرجة أنه يتدلّى أطولَ من سروالي القصير.

أفكّر أحيانًا في أنّه طالما كان لدى الجيش زيّ موحد يرتديه جنوده، والكثير منا لا يرتدي الزي نفسه، فكيف لنا أن نكون جيشًا. وإذا كان الجيش يتكون من جنود، ونحن لسنا جيشًا، فكيف لنا أن نكون جنودًا حقيقيين. ولهذا السبب لا أعرف سبب غضب القائد منا دائمًا.

يقول القائد إننا سنهجم على إحدى القرى. أسأل نفسي: أين هي القرية؟ ومن نحن

حتى ننهبها؟ لا أعلم، ولكني لن أسأله، فربما يضربني. ثم يسألنا إذا كنا نكره العدو، وفي كل مرة نجيب: نعم سيدي! ونخبط على الأرض وأحيانًا نقفز في الهواء. يسألنا إذا كان العدو يقتل أمهاتنا وآباءنا ويحرق منازلنا، ونجيبه بهدوء: نعم سيدي، لأننا جميعًا نفكّر في الأماكن والأشخاص الذين تركناهم وراءنا. أفكر بأمّي وأختي اللتين هربتا. لا أعرف ما إذا كانتا على قيد الحياة أم ميتتين. لا أعرف حتى إذا كان بإمكاني معرفة شكليهما إذا رأيتهما اليوم. وكلّما رأيت امرأة أو فتاة أتمعن بها جيدًا لأعرف ما إذا كانت هي أمي أو أختي.

يصرخ القائد، علينا كي نكون جاهزين لمدة ألف وأربعمئة ساعة. أعتقد بأن هذا فكاهي للغاية ويجعلني راغبًا في الضحك. يعلم الجميع أن اليوم لا يتكون من ألف وأربعمئة ساعة، وأنظر إلى رتل الجنود لأرى ما إذا كان ستريكا يجد ذلك مضحكًا أيضًا. ينحني للأمام كي ينظر إلي ويخرج لسانه ويفتح فمه على وسعه. أريد أن أضحك لكني بدلًا من ذلك أشدّ بطني وأحبس أنفاسي. يرفع القائد رأسه عاليًا حتى يلمع وجهه كأنه من المعدن. انصراف! يصرخ علينا ثم يسير نحو الأشجار في الطريق المؤدي إلى أكواخنا. يتبع بعضُ الرجال القائدَ، ويؤرجحون بنادقهم على ظهورهم فيما يمشون بكل هدوء. بعض هؤلاء الجنود يفعلون كل ما يفعله. يفعلون كل ما يقوله. بعض الرجال الآخرين يمسكون بنادقهم من الأمام ويتركون أطرافها تُجرّ في الأرض كالمحراث أثناء بحثهم عن ظلٍّ يستريحون عنده. أمّا أنا فأذهب للبحث عن ستريكا.

أعثر عليه تحت شجرة بعيدًا عن الآخرين، يمسك بعصا وينقش بها صورة في الأرض الجافة. مرة بعد أخرى يرسم الصورة نفسها لرجل وامرأة مقطوعي الرأس، لأنّ رأس كل منهما يتدحرج على الأرض. ستريكا، أناديه فينظر إليّ. يظلّ صامتًا. إنه لا يقول شيئًا، أحدّث نفسي. منذ أن أصبحت جنديًا، لم أسمع صوته أبدًا، لكني لم أعرف مشكلته حتى الآن. تخبرني الصورة أنه توقف عن الكلام منذ مقتل والديه. لم أصدّقه في المرة الأولى التي أخبرني فيها بذلك، لكنني أحاول دائمًا أن أجعله يقول شيئًا أو أن يصدر صوتًا من فمه على الأقل. أشعر بالحزن لأجله. لكنني اعتدت على ذلك، فهو يتصرّف هكذا منذ البداية. يتحرّك ستريكا جانبًا حتى أتمكّن من الجلوس

بجواره في الظل. أعلم أنني أكبر منه لأنني أطول منه، لكن لم يعد أحد يبوح بعمره بعد الآن. كل ما نعرفه هو أننا قبل الحرب كنا أطفالًا، أما الآن فلم نعد كذلك. أنظر إلى ستريكا وألاحظ كيف أن بشرته بُنية في بعض الأماكن وسوداء في أماكن أخرى، ويبدو تمامًا مثل الزي المموّه الذي يرتديه الآخرون. أضحك حين أراه وأقول له: ها ها. كيهي كيهي كيهي. ستريكا يبدو مثل قميص.

على الأرض يكتب «جائع»، وأرغب في أن أقول له: أنا جائع أيضًا. أنا جائع أيضًا، لكن الكلمات لا تخرج من فمي. لم يتبق طعام لأي أحد في المخيم. يضع ستريكا رأسه على ساقي ويلعق شفتيه المتشققتين. الدم عليهما جاف ولامع، ويبدو كأنه قد ابتلع طلاءً أحمرَ. ألمس جبهته بيدي ثم ألمس جبهتي لأقارنَ ارتفاع حرارته بي، لكن لدينا الحرارة نفسها. لا يعاني من الحُمى، وأنا كذلك، لا أعاني من الحمى. نحن متعبان فحسب. يضرب ستريكا الهواء فوق رأسه. لا نريد القتال. أقول له: في يوم من الأيام، لن يكون هناك حرب وسنعيش معًا في بيتٍ، ونأكل كل الطعام الذي نريد أن نأكله. هل تسمعني؟ يتصرّف كما لو أنه لا يسمع شيئًا مما أقوله لأنه يعلم أنها أكاذيب. سنبقى نخوضُ الحروب دائمًا لكن من الجميل أحيانًا أن نفكر في أشياء أخرى من أجل مستقبلنا.

يصرخ الملازم: ألف وأربعمئة ساعة. أسمع صوت القائد يقول: هيّا! استعدّوا! حان وقت الانطلاق. حان وقت الانطلاق.

ثم نحمّل الشاحنة المتوقفة على الطريق قرب أكواخنا. حتى الشاحنة تبدو غير راغبة في الذهاب. لا تبدو بحالة جيدة على الإطلاق. محرّكها يسعل ويبصق مثل عجوز مريض. يحتوي الجزء الخلفي منها على مقعد خشبي طويل سيضايقك بشظاياه، هذا إن كنتَ محظوظًا بما يكفي للحصول على مقعد. وإن لم تكن محظوظًا، فحين تتحرك الشاحنة سيتمايل رأسك من جانب إلى آخر مع كل مَطبٍّ على الطريق، وتشعر بأنك قد صرتَ في أرض المعركة حتى قبل أن يبدأ القتال. يمتلك القائدُ شاحنة صغيرة تخصه، وأنا أحبها أكثر لأنها مريحة أكثر. أحيانًا، إذا كان مسرورًا بنا، يأخذني أنا وستريكا لنركب معه، لكن هذا يحدث في أحيان قليلة فقط.

وفي معظم الأوقات نضطر للركوب في الشاحنة الكبيرة مع بقية الجنود.

يقسّم القائد الناس بهذه الطريقة: أنت تعال معي. أنت اذهب مع الملازم. أنت تعال معي. أنت اذهب مع الملازم. أقف بجانب ستريكا حين يضع القائد شخصًا هنا وشخصًا هناك لأنني أريد أن أكون في مجموعة ستريكا نفسها. ولأنني أيضًا أريد أن أكون في مجموعة القائد نفسها لأنه جندي حقيقي ويجعل الجميع يتصرفون كجنود أكثر مما يفعل الملازم. القائد يختار. ستريكا من الأشخاص الذين يختارهم، وأنا من الأشخاص الذين لا يختارهم. أريد أن أكون مع ستريكا والقائد، ولكن بالطبع الشيء الذي تريده بشدة هو الشيء الذي لا يحدث أبدًا. لا أريد أن أكون مع الملازم ولا أريد أن أركب في شاحنته.

Telegram:@mbooks90

لا أحبّ الملازم لأنه جبان. أعلم أنه جبان لأن بشرته فاتحة جدًا وصفراء كأن أحد والديه من البيض. لا أعلم ما إذا كان والده أم والدته، وفي أغلب الأحيان أتساءل ما إذا كان لديه أم أو أب أصلًا. سمعته مرةً يقول إنه كان يبيع الأحذية قبل الحرب، ذلك لأنه لم يحظ بفرصة الذهاب إلى المدرسة، وسمعته يقول أيضًا إن أمه وأباه ماتا في حادث سيارة حين كان صغيرًا وهكذا انتهى به الأمر إلى بيع الأحذية في السوق. أعتقد أنه وُلد لكي يبيع الأحذية ولم يصبح ملازمًا في صفوف المتمردين إلا بالرشوة. أعرف ذلك لأنه في أحد الأيام وبعد أن وبّخه القائد لأنه لم يقاتل، سمعته يتمتم قائلًا إنه أصبح ملازمًا لأنه يعتقد بأن الضابط ليس مضطرًا للقتال. حين يكون بقرب القائد يتصرف ككلب خائف ولا يجرؤ على التحدّث حتى. وفي المعركة، لا يتقدم إلى الخطوط الأمامية أبدًا، بل يبقى دائمًا في الخلف ويحاول توجيه الناس إلى ما ينبغي فعله. يختبئ دائمًا خلف الشاحنة أو خلف شيءٍ يحميه من القنبلة أو الرصاصة. لقد رأيته يحتمي بجثة ميت، لكنني رأيت فعلًا أشخاصًا آخرين يقومون بالشيء نفسه، لذا لا يغضبني ذلك. ومع هذا، لا أريد أن أكون مع الملازم لأنني أخشى أن أموت بسرعة وحينها لن أرى عائلتي مرة أخرى إلى الأبد.

يزداد غضبي لأن القائد لم يخترني مع ستريكا، وأكافح بشدة للوصول إلى الجزء الخلفي من الشاحنة والجلوس أولًا، على الأقل كي لا أضطرّ إلى البقاءِ واقفًا وثنهك

قوايَ قبل بلوغنا موقع الهجوم. أجد مقعدًا في زاوية بها لوح خشبي على أحد الجوانب. بهذه الطريقة لا يمكن لأحد أن يدفعني إلى هنا أو هناك. ولن يجبرني أحدٌ على النهوض.

الطريق يمضي ويطول. أنظر من خلال اللوح الخشبي نحو الأشجار التي تتحرك كأنها تركض، وأرى الطريق الذي يتحرك مثل نهر أسود يحملنا إلى مكان بعيد. أشعر بالهواء البارد على جسدي، الهواء يطرد الحرارةَ عن كل الأجساد الموجودة في هذه الشاحنة، لذا لا أتعرق كثيرًا. رأسي يتمايل من جانب إلى آخر لدرجة أنني أستخدم يدي كي أثبته في مكان واحد. الجوع يغالبني لأنني لم آكل شيئًا منذ فترة طويلة. النعاس يغالبني لأن الشاحنة تتأرجح للخلف والأمام للخلف والأمام مع كل المطبّاتِ على الطريق. النعاس يغالبني فأتذكر قريتي. لقد مر وقت طويل على رؤيتها في أحلامي.

تتوقف كل الشاحنات عند تقاطع طرق. يقفزُ الجميع، وأنا آخرهم لأنني أول الصاعدين إلى الشاحنة. بمجرد أن أقفز إلى الخارج، أبدأ في التعرق وتلتصق قطرات العرق بجلدي مثل ملايين الحشرات اللامعة. أنفض العرق عني، لكن ذلك يبلل يدي ويجعلها تفوح برائحة الطين الرطب. يتمطّى الجميعُ بهذا الشكل وذاك، ويصرخ بنا القائد: حرّكوا دماءكم! ونردّ عليه: حاضر سيدي!

يسير القائد ذهابًا وإيابًا مكتوف اليدين ينظر حوله. يمرر يده في شعره ويمسك بلحيته أيضًا، وهذا يخيفني. أتساءل عمّا إذا كان يعرف إلى أين نحن ذاهبون أو كيف سنصل إلى هناك.

أنظر خلفي، أسفل هذا التلّ، إلى الأرض التي تمتدّ لأميال وأميال. كل شيء أخضر لأننا في جنوب البلاد حيث يوجد الكثير من الأشجار هنا. هذه الأشجار سمينة جدًا لأنها تشرب الكثير والكثير من المياه. أرى من قمة هذا التل ومن خلال العشب الطويل على جانب الطريق كيف تلتقي الأرض بالسماء. لا أعرف أين ينتهي التل وأين تبدأ الغيمة لأن ذلك يحدث بعيدًا عني جدًا. أرى الكثير من الأشجار، الكثير الكثير من الأشجار، وأتساءل ما إذا كان الرب قد زرع كل الأشجار التي يمكن أن يتخيّلها في

هذا الجزء من البلاد. ربّما نفدت منه الأشجار قبل وصوله إلى الشمال حيث تسيطر الحكومة ولذلك أهل الشمال غاضبون منا ويريدون قتلنا، لأنّ الرب قد نسيهم. يبدو من هذا التل أنه ليس عليك سوى القفز إلى أعلى الشجرة حتى يمسكوا بك، لكنني أعلم أن هذا لا يمكن أن يحدث. في أحد الأيام، قفز جنديٌ من مجموعتنا عن صخرة عالية قائلًا إنه رأى الجنة في كل تلك الأشجار. أظنّ أنه مجنون. لا أعلم إن رأى الجنة لكنني لا أريد أن أجرّب ذلك بنفسي كي أكتشفَ الأمر.

لا أحد يخبرني ما اسم هذه الأشجار، لذلك أختلق لها أسماء من عندي. أعرف شجرة الإيروكو فقط، لذا أناديها كلما رأيتها. لكن بعض الأشجار أقصر من الإيروكو وأسميها أطفال الغابة. هناك شجرة لأوراقها خمس حوافَ لذا أسميها شجرة الورقة النجمية، لأن أوراقها حين تسقط تشبه النجوم في السماء. أعرف ذلك لأنه حين تسقط هذه الأوراق في الوحل تصفرُّ كالنجوم. ثمّةَ أشجار أصغر لها عرائش تخنقها. أسميها شجرة العبيد لأنها عبدة للعريشة التي تتسلق عليها نحو الشمس. لو كنت أنا شجرة لأحببتُ أن أكون مثل شجرة الإيروكو لأنها طويلة جدًا وقوية جدًا لدرجة أنه لا يوجد ما يزعجها، لكني أعتقد أنني أشبه شجرة العبيد لأنني لا أستطيع أن أفعل ما أريد أبدًا.

لا أريد القتال، اليومَ، لأنني لا أحب إطلاق النيران وصوت السكاكين وهروب الناس. لا أحب أن أسمع صراخ الناس أو أن أرى الدم. لا أحب أيًا من هذه الأشياء. لذا أسأل نفسي: لماذا أقاتل؟ لماذا لا أستطيع أن أقول لا؟ ثم أتذكر ذلك الصبي الذي رفض القتال فأمرنا القائد بأن نقفز على صدره، وفعلنا ذلك حتى سالَ الدم من فمه.

يقول القائد: شكّلوا الأرتال. أنتم ستذهبون معي وأنتم ستذهبون مع الملازم. نصطفُّ في أرتال مائلة. ساقاي ترتجفان، ترتجفان. الجميع مثلي، إذ لا أحد يحب الوقوف في الطريق الرئيس بهذا الشكل. حتى القائد يشعر بالخوف ويدير رأسه من جانب إلى آخر وينظر أسفل الطريق في اتجاه ثم إلى الأعلى في الاتجاه الآخر. ينظر إلى السماء وأعلم أنه يفكّر في أن الحكومة ترسل أحيانًا الطائرات أو المروحيات لإسقاط القنابل والنيران على الجميع. يتحدث بسرعة كبيرة وهو يصرخ: انتباه!

ونصيح جميعًا: نعم سيدي! تقع هذه القرية بين هذين الطريقين، يصرخ، لذا فالجنود الذين معي سيهاجمون من طرف بينما يهاجم الذين مع الملازم من الطرف الآخر. بهذه الطريقة لن يتبقى مهرب لهؤلاء الكلاب. سوف نقتلهم كما قتلونا ونسرق منهم ما سرقوه منا. نردّ عليه بصراخنا: نعم سيدي!

يأخذ مجموعته، وستريكا معهم، ويتركني أذهب مع الملازم ورامبو. أحب رامبو وأرغب في أن أضع على رأسي منديلًا أحمر كالذي يضعه ليمنع العرق من التدفق على عينيه حين ينشغلُ بالقتل. لا أحد يعرف سبب حصوله على اسم رامبو، لكنني أعرف الفيلم وأعرف مدى قسوة هذا الرجل ولؤمه وأقول بيني وبين نفسي: نعم نعم، رامبو هذا قاسٍ ولئيم أيضًا لكنه ذكي جدًا. أحبُ عينيه الثاقبتين لدرجة أنه يرى كل شيء في كل معركة نخوضها. يتفادى الرصاص والقنابل وكل الأشياء التي تقتل الناس. أتساءل، أحيانًا، ما إذا كانت لديه تميمة خاصة تجعله يعيش ولا يخاف من الموت، لكني لا أريد أن أسأله عن ذلك لأنه سيسخر مني. أعلم أنني إذا بقيت معه، فسأنجو على الأقل، لذلك لا أشعر بالغضب الشديد لذهابي مع الملازم هذه المرة.

لا يوجد ما يكفي من البنادق ليحصل كل شخص على واحدة، ولذلك بقيت بلا بندقية. وعلى أية حال فالقائد يقول إنني ما زلت صغيرًا على حمل السلاح، لأن الأشخاص الصغار لا يحملون البندقية بشكل صحيح، بل ترتد البندقية من أيديهم نحو الأعلى والأسفل حين يطلقون النيران. لذا يعطيني سكينًا. لكن الجميع يحصلون على زيت السلاح. الجميع يريد زيت السلاح دائمًا لأنه مخدّر يجعل الحياة أسهل. يجعلك زيت السلاح أقوى وأكثر شجاعة. إنه يؤلم رأسك وطعمه مثل طعم الرصاص وقصب السكر. لا يعجبني لونه الشبيه بلون الزيت أو الطلاء الأسود أو الماء القذر، لكني أكافح لآخذ حصتي وأضعها في فمي. يبدو الأمر كأنني ألعق الصخور أو أقضم قلم الرصاص أو كأنني أمصّ الحلوى. يحترق حلقي مثل نار البندقية لكن طعم الحلاوة في فمي يشبه قصب السكر. أريد المزيد من زيت السلاح.

بطني يقرقر مثل كلب جائع لأن زيت السلاح يجعله على هذا النحو. أشعر بالجوع ولست جائعًا. أريد أن أتقيأ ولا أستطيع أن أتقيأ، لكنني أفكر بأنه لا يجب عليّ أن

أتقيأ، لأنني لم أتناول الكثير من الطعام، وإذا تقيأت فلن يبقى شيءٌ داخل معدتي يمدّني بالطاقة.

يصرخ القائد، لكنني أسمعه كأنه يتحدث من خلال كيس كبير محشو بالقطن. يقول دعونا نصلّي، دعونا نصلّي ثم يطلب إلى الرب أن يرشدنا في كل ما نقوم به. أعتقد أنه لا ينبغي لنا أن نطلبَ شيئًا من الرب لأنه قد نسيَ أمرنا على ما يبدو. أحاول أن أنساه حتى لو أنّ أمي لن تُسرّ بذلك. تطالبنا دائمًا بخشية الله والذهابِ إلى الكنيسة أيام الآحادِ؛ لكنني الآن لا أعرف حتى ما هو يوم الأحد. أودّع ستريكا وأراه يسير بعيدًا مع القائد. أنتظر أن يبدأ مفعول زيت السلاح حتى لا أضطر للتفكير كثيرًا بعدها.

نسير إلى أسفل الوادي، وننزل إلى الأدغال، لذلك أشعر بأنني حيوان يعود إلى وكره. تزداد سخونة جبهتي ويديّ، وأجد صعوبةً في التقاط أنفاسي كأن الهواء صار ماءً، كأنني في المكان الذي تولد فيه الغيمة قبل أن تأتي بالمطر. أسمع صوت الماء وأنا عطشان، وأريد أن أشرب لكن المجرى الذي أتينا إليه يملؤه الطين. هذا لا يهمّ بكلّ الأحوال. أضع رأسي في الماء وحين أرفع رأسي تكون السماء مليئة بالألوان المختلفة وأرى أرواحًا في الغيوم. يبدو كل واحدٍ مثل حيوان، لم يعد هناك بشر. لا أحد لديه أنف أو شفتان أو فم أو أي شيء من الأشياء التي تجعلك تتذكر شخصًا ما. كل شيء يبدو كحيوان، ورائحته تشبه رائحة الدجاج أو الماشية.

أثناء عبور المجرى، أشعر بشيء في جسدي كالكهرباء وأفكّر: نعم، من الجيد أن أقاتل. أحب كيف تطلق البندقية النار وكيف يطعن السكين. أحب أن أرى كيف يهرب الناس مني وكيف يصرخون وأنا أقتلهم وأسفك دماءهم. أحب أن أقتل.

أثناء عبور المجرى، أشعر كأنني رجل ذو عضلات كبيرة ورأس صغير وأفكر في أن لا شيء يمكن أن يوقفني أو يعيقني، ولا حتى هذا التل الذي نتسلقه. أنا مثل النمر الذي يصطاد في الأدغال وأشعر كأنني عائد إلى وكري.

كل أوراق الأشجار حمرٌ تقطّر، وكل النباتات كثيفة جدًا. الأدغال تخنقني بأغصانها وتحاول إعاقتي بجذورها، لكنني أركض وأركض عبر كل ألوان هذا العالم، عبر كل

الأشجار، عبر كل الأزهار. حين أسقط على ركبتيّ لا ألقي بالًا لذلك، لأنني أنهض وأركض وأركض، وأركض. لا أحد يعلم أننا قادمون إلى هذا المكان، مثل الغيوم حين لا يتوقع قدومها أحد.

في الطريق، أحسّ بوجود الطين الرطب بين أصابع قدميّ وأشعر بالأعشاب كالسكاكين تنخز كاحليّ. أتلو صلواتي للرب لكن كلامي كله يذهب إلى الشيطان. ساعذني على القيام بالشيء الذي تريدني أن أفعله، أقول، لكنني لا أسمع إلا الضحك من حولي، من الأشجار والمَزارع التي نمرّ بها، المزارع التي ما عادت تحتوي اليام والكاساڤا لأنه لم يبقَ مَن يعتني بها.

وفي الطريق، نصل إلى حافة هذه القرية حيث بيوت الفقراء مبنية من الطين والقصدير والخشب. لا أحد يسكنها، لذا نهدمها ونشعل النار في أسقف القش وننتقل إلى البيوت الأخرى. كل واحد منّا يأخذ بيتًا ويقول: هذا بيتي وكل ما فيه ملك لي. أركض نحو دخان أحد البيوت التي يوجد بها جدار إسمنتي عليه قطع الزجاج المكسور لإبعاد الأشخاص المرعبين مثل القائد والملازم.

يحاول شخصٌ في هذا البيت حماية نفسه خلف بوابة حديدية، لكننا ندفعها وندفعها حتى تنفتح مع صوت يشبه صرخة كبيرة وكأنها لا تريد أن تفتح على الإطلاق. هناك تراب ناعم تحت قدميّ وأشجار برتقال ومانجو خضراء طويلة حولي. كل المباني مطلية باللون الأخضر، ورغم أنها باهتة لكنها تخرج من العشب بنوافذها البِيضِ كما لو أنّ عِظامًا بداخلها.

أسمع من بعيد صراخًا وإطلاق نار، وأحس برأسي يصغر وجسمي يكبر. أريد أن أقتل؛ لا أعرف لماذا. أريد أن أقتل فحسب. أرى حيوانًا وأرغب في قتله. أرفع الماشيتي فأراه. أصرخ: ستريكا! لأنني على وشك تقطيعه. يبدو لي مثل كلب لكننا نتعانق وسط كل الصراخ وإطلاق النيران وأتحسس رأسه ويتحسس رأسي ثم نذهب معًا عابرينِ كل الألوان المتغيرة نحو البيت الرئيس في هذا المكان.

لا يوجد طعام. لا شيء يُلعق، ولا شيء يُقطع، ولا شيء. الزجاج المكسور في كل مكان كأن شخصًا قد أتى إلى هنا من قبلُ. كل الكراسي مكسورة ولكن لا تزال هناك

صورة على الحائط وزهرة بلاستيكية ملقاةً على الطاولة.

يوجد الكثير من الأبواب في هذه الغرفة. تقود جميعها إلى الردهة السفلية. رائحة البول والفضلات تحيط بنا في كل مكان. عند آخر القاعة، يحطّم الجنود الباب، بووو بووو، يركلونه ويهوونَ عليه بالماشيتي حتى يتكسر الخشب.

في الغرفة، أنظر إلى الأعلى وأرى... السماء. ليس هناك ما يمنع المطر من الدخول أو الربّ من مراقبة ما نفعله. الشمس تتراخى فوقنا كأن أحدًا جرحها وراحت تنزف فوقنا ألوانها الحُمر والصُفر والأرجوانية والزُرق. ثمّةَ مقعد في الزاوية يقتاتهُ النمل الأبيض، وفي الزاوية الأخرى سرير رائحته تشبه رائحة الدجاج والماعز. أريد أن أقتل. نحن جميعًا نريد أن نقتل.

تختبئ امرأة وابنتها تحت السرير. تنظر إلينا بقلق شديدٍ، شديد كأنّ هناك من شقّ وجهها بالسكين. رائحتها كرائحة الماعز ونريد أن نقلتها، لذا نجرّها، نحن الجنود جميعًا، إلى الخارج، لكنها تمسك بابنتها. تمسكان ببعضهما، وترتجفان كأنهما مصابتان بالحمى. إنهما أشد نحولًا منا، والجلد يتدلى على جسديهما كجلد الفيل لذلك أعرف أنهما كانتا بدينتين قبل أن تأتي الحرب وتجعل الأثرياء فقراء والبُدنَ ناحلينَ. الفتاة منكمشة للغاية، لدرجة أنها تبدو كجنين لم يولد بعدُ – أعرف ذلك لأنني كنت أخرج الأجنة من بطون أمهاتهم لأرى من كان منهم صبيًا ومن كانت بنتًا. هل أنت أمي؟ أقول. هل أنت أختي؟ لكنهما تصرخان فحسب وكأن الشيطان يلاحقهما. لكنني لست الشيطان. لستُ فتى شريرًا. لست فتى شريرًا. لم يباركني الشيطان ولست من أهل الجحيم. لكنني ما زلت أفكر أن الشيطان قد ولدني ولهذا السبب أفعل كل هذا.

أقفُ خارج جسدي وأشاهد كل شيء يحدث. أقف خارج جسدي. أمسك بالمرأة وابنتها. ليستا أمي وأختي. أقول لهما: كفى. لقد حانت النهاية.

والآن تصلّي المرأة للرب: أرجوك خذ ابنتي إلى الجنة بأمان. اغفر خطاياها. أنت تقول طوبى للأطفال أولئك الذين يحيون فيك. إنهم لا يرون الموت. هل أخطأتُ بحقك؟ أحاول أن أعيش من أجلك. أرجوك يا إلهي إنني أتوسل إليك. أنا أضحك وأضحك لأن الرب نسي الجميع في هذه البلاد.

يسحب ستريكا سرواله القصير ويري هذه المرأة أنه رجل بينما أمسك أحد ساقيّ المرأة ويمسك جندي آخر ساقها الأخرى. تصرخ: الشيطان هو من باركك! الشيطان هو من وَلَدك! لكن ليس الشيطان مَن أنجبني. لدي أم وأب؛ هما من فعلا ذلك.

تصرخ وتصرخ بلا توقف: آيييييييي، كما حدث عند نشأة قريتي منذ زمن بعيد، حين كان هناك محارب عظيم وجيشه يقاتلون ويقاتلون الأعداء في الأدغال قرب قريتي. ظلوا يقاتلون لعدة أيام دون أن يتغلب أحد الطرفين على الآخر، ليشعروا بالتعب أخيرًا ويقولوا: دعونا نتوقف، دعونا نتوقف! فيتوقفون ويتناولون الطعام معًا، العدو مع عدوهِ، ويفرحون كثيرًا كثيرًا إلى أن يناموا. ولكن في الليل يهجم العدو على المحارب ويجرحه فيهرب إلى الأدغال. وحين يسقط بجانب النهر ويكاد يموت، تأتي إلهة النهر لمساعدته وعلاجه. كانت أجمل ما يمكن رؤيته في العالم كله، فحين يستيقظ المحارب لرؤيتها يقول: يا إلهي! ويقع في حبها في تلك اللحظة. لذلك، وبعد أن ضلَّ طريقه إلى قريته، يقول: حسن، سأتزوج بهذه المرأة الجميلة وسيكون لدينا أطفال، وهذا بالضبط ما فعله. وحين تلد المرأة، يتبين أن لديها صبيين توأمين، قويين جدًا لأن أباهما محارب وأمهما من الآلهة. ولأن أمهما من الآلهة، يستطيعان أيضًا أن يتحوّلا من حيوان إلى آخر. ففي بعض الأحيان يتحولان إلى قردين يتسلقان الأشجارَ، ويقطفان أفضل الفاكهة، وأحيانًا يتحولان إلى طائرين كي يشاهدا العالم كلَّه. أحبَّ بعضهما بعضًا، كثيرًا، إلى أن تحوّلا في يوم من الأيام إلى حيوانين مختلفين. أحدهما يصبح ثورًا كي يذهب إلى النهر ويشرب لأنه عطشان والآخر يتحول إلى نمر حتى يتمكن من الصيد في الأدغال. كان النمر يصيد ويصيد لكنه لم يجد شيئًا يقتله لذا عاد ليبحث عن أبيه وأمه. وحين وصل إلى النهر، رأى الثور هناك يشرب وقال: أوهو، سأقتل هذا الشيء وأحضر الطعام لعائلتي كي يأكلوه. يقترب بهدوء من الثور حتى يتمكن من عضّ رقبته ولكن في الوقت نفسه يعاركه الثور ويغرس قرنيه الكبيرين في قلبه. ولأنهما أصيبا، يتحولان مرة أخرى إلى بشر ويريان أنهما أخوة لا أعداء، فيبكيان ويبكيان إلى أن يموتا هناك وتجري دماؤهما في النهر فيصبح لونه بُنيًا. وحين يعود الوالدانِ، سيعثران عليهما ميتين على هذا النحو، فتصرخ الأم: آيييييييي وتبكي وتقول إنها بحاجة إلى الابتعاد عن هذا المكان حيث

مات ابناها، لأنه مكان نجس. لذلك ينتقلان إلى أعلى التلّ حيث توجد ساحة القرية الآنَ، وينجبان المزيد من الأطفال، وفي كل عام تعود الإلهة والمحارب برفقة بقية الأطفال لزيارة المكان الذي مات فيه ابناهما التوأمان.

آيييييييي! تنظر المرأة إليّ وهي تصرخ. أصيحُ: اخرسي! اخرسي! اخرسي! هذه المرأة من الأعداء. تقتل عائلتي وتحرق بيتي وتسرق طعامي وتشتّت شمل أسرتي. وهذه الفتاة من الأعداء أيضًا. تقتل أبي وتجبرني على الهروب من بيتي. أسحب الفتاة لكنها لا تترك ذراع والدتها. إنها تتشبث بها بقوةٍ، كأنهما حيوان واحد. نسحب، أنا وستريكا الفتاة، نسحبها حتى تطقطق ساقاها لكنها لا تفلت أمها. إنها تصرخ وأرى كيف تخرج أنفاسها من فمها، تخرج بلا انقطاع. يرفع ستريكا سكينه عاليًا فوق رأسها ويطعنها فتفترقانِ عن بعضهما.

لم تعد لدى الفتاة يد.

إنها لا تصرخ ولا تصيح ولا تصدر أي صوت. ما عاد لديها يد فحسب. يقول القائد إنها من الأعداء، إنها تسرق طعامنا وتقتل عائلاتنا لأنها من الأعداء. أقفز على صدرها، كرااك كرااك، وأقفز على رأسها، بام بام، حتى لا يخرج من فمها سوى الدماء.

أنتِ لست أمي، أقول لوالدة الفتاة ثم أرفع سكيني فوق رأسها. أحب صوت طعن السكين، تشووم تشووم، وأحبّ كيف يتناثر الدم على يدي ووجهي وقدمي. أطعن وأطعن وأطعن إلى أن أرفع عينيّ نحو الأعلى بينما يحل الظلام.

ليلة أخرى.

الوقت يمرّ. الوقت لا يمرّ. يتحوّل النهار إلى ليل. يتحوّل الليل إلى نهارٍ. كيف يمكنني أن أعرف ما يحدث؟ يبدو الأمر كما لو أن كلّ شيءٍ سيصبحُ على ما يرام، في يومٍ ما، بطريقة ما، رغم أننا نخوض الحرب، وفي اليوم التالي نقتل ونقتل وننهب كلّ شيء. كيف يمكنني أن أعرف ما يحدث لي؟ كيف لي أن أعرف؟

كل شيء مقلوب مثل القميص الذي أرتديه. بينما نحن نسير أو نتدرب أو نقتل، أرى أشياء أمامي، وأحيانًا أرى أشياء حدثت قبل الحرب لكنها تبدو لي كما لو أنها تحدث الآن. إذا رأيت في المخيم شخصًا يرقص أو يغني كي لا يفكر في الحرب، حينها أغمض عينيّ وأراني في قريتي حيث كنا نحب الرقص كثيرًا. كما أنّ الرقص هو الطريقة التي نتعلم بها أن نصبح رجالًا. ينبغي على الشاب أن يقضي عامًا كاملًا في تعلم كلّ الرقصات التي ستجعله رجلًا، وإن لم يتعلم ذلك، فلن يعدّه أحدٌ رجلًا.

إذا تراءى لي احتفالٌ في قريتي، أغمض عيني وأتخيّل كيف يأتي الجميع إلى ساحة القرية ويقف الرجال على جانب واحد بينما النساء والأطفال والفتيان الذين لا يرقصون على الجانب الآخر. يبدأ الاحتفال منذ الصباح، إذ الهواء لا يزال منعشًا ومشبعًا بالدخان المنبعث من النار التي أوقدتها كل المنازل باكرًا. أتذكر كيف كان كل الراقصين ينظفون ساحة القرية وكيف ترسم المكنسة خطًا في الرمال على طول الطريق من بيت الزعيم حتى جدار الكنيسة الرمادية.

يحدث ذلك كل عام، ووالدتي تتذمر لأنه لا يصحّ أن نحتفل بأي روح إلا الرب لأنه يغار وسيعاقبنا على ذلك. ومع ذلك فقد ظلت تربط القماش الأبيض حول جسدها وتلفّ رأسها بقماشة بيضاء لتنضمّ إلى النساء الأخريات اللواتي يقضين الليل كله يطبخن في بيت زعيم القرية. وحين تتذمر على هذا النحو كان والدي يقول: الرب يعلم أننا لا نعبد سواه حقًا، ولكن هناك أرواح أخرى لا بد أن نلقي عليها التحية أيضًا.

في الصباح كان كل أفراد القرية يقفون في الساحة مرتدين ملابسهم البيض. كنت دائمًا أنظر إلى النساء وكيف يغمضن أعينهن من التعب وكيف يقفز الرجال الواقفون، ويتمايلون، كأنهم يريدون الرقص من جديد. ثم أنظر إلى قارعي الطبول الجالسين وهم يفرقعون أصابعهم ويضعون آذانهم على جلود الماعز في الطبول، كأنهم

يستمعون إلى ما تريد الطبول أن تقوله. كان الهواء متوترًا مثل رأس الطبلة والكلُّ في حالة هياج.

الجميع واقفون حول الساحة. يهتاجون مع كل ضجيج يصدر معتقدين أن الوقت قد حان، أن البداية قد حانت، لكن البداية لا تأتي حين تفكّر بها. كفّ الجميع عن الانتظار وراحوا يتحدثون ويتحدثون عن هذا وذاك حين بوووم! دقت الطبلة الأولى وآييييييي! يصرخ الراقص الأول ليطلب إلى الجميع السكوت والمشاهدة فحسب. كل الراقصين يؤدّون رقصة المحارب، يخرجون معلقين أجراسًا على كواحلهم حاملينَ «ماشيتات» مصنوعة من الخشب. كلُّ الأقنعة على الوجوه مطلية بألوان زاهية كشروق الشمس، ألوان تكاد ترقص بقدر ما تدقّ الطبول وترنّ الأجراس. يعتمرونَ قبعات القش التي تتحدّث بصوت يشبه صوت الريح حين تعصف بالقش كلما قفز الراقصون بهذا الشكل أو ذاك، ويتظاهرون بأنهم يقاتلون حتى يتطاير الغبار في كل مكان مزكمًا الأنوف.

ثم يختفي الراقصون فجأةً، والكل يتعرّق ويصيح ويبتسم، قبل أن يبدأ العيد ونتناول اليام مع زيت النخيل الأحمر والسمك واللحوم والبيض مع الفلفل الذي يجعل فمك يشتعل كالنار، لذا نضطر لشرب الكثير من الماء. في هذه الأثناء تتحدث النساء مع بعضهن والرجال مع بعضهم فيما الأطفال يلعبون. أما أنا، فأريد أن أرقص كثيرًا لذا أحاول تكرار الرقصة التي شاهدتها.

وقبل أن نستعدّ، بوووم! آيييييي! ويعود الراقصون لتأدية رقصة الإلهة مرتدين أقنعة الطباشير البيضاء والطلاء الأزرق على أجسادهم والقماش الأزرق حول خصورهم. لا تقرع الطبول هذه المرة لكن نساء القرية يغنين بصوت عالٍ أغنية إلهة النهر؛ بينما يتفرج الرجال ويحركون قدمًا نحو الأخرى.

بعد الظهيرة، نتناول المزيد من اليام المهروس وحساء لحم الماعز وذيل الثور، أو الأرز مع الدجاج والبلانتين أو الذرة المشوية والسلطة مع الأوراق الطازجة من المزرعة، لكن لا أحد يبتهج حقًا لأن الأغنية حلوة جدًا لدرجة تجعلك راغبًا في البكاء، وإذا تحدّثتَ فإنك ستفسدُ حلاوتها.

حين حل المساء أخيرًا، وغابتِ الشمس، والضوء الوحيد آتٍ من الشعلة المتقدة في ساحة القرية، كنا نرقص رقصة الثور والنمر. كل الراقصين يتلألؤون بالزيت والعرق ويخبطون الأرض بأقدامهم، بينما تهزّ أثوابهم عشبَ الأرض. في الضوء البرتقالي، يبدون كأرواح ترقص مرتدية أقنعة رأس الثور، ذوات القرون الحادة الملونة بالأبيض والأحمر، وأيضًا أقنعة النمر ذوات الأسنان الحادة الملونة بالأبيض والأحمر. تعجبني تلك الرقصة أكثر من غيرها، يعجبني كيف يركض الثور والنمر، بعضهما نحو بعض، ويتراجعان. يتقدمان ويتراجعان، يلوّحان بأذرعهما وأرجلهما ويديرانِ رأسيهما من جانب إلى آخر حتى نهاية الرقصة، حين يسيل الكثير من العرق على الأذرع ليبدو -في الضِّياء البرتقاليّ- دمًا يسيلُ.

ومع بقاء كل أغاني ذلك اليوم ترنّ في الجوّ من فوقنا، كان أفراد القرية جميعهم يجمعون المشاعل ويوقدونها من نار الساحة ويسيرون في الطريق مروزًا بالتجمّع، عابرين بستان النخيل نحو النهر. يندفع الجميع بسرعة لأن البعوض يلدغنا وأيضًا لأننا نريد معرفة من سيكون الفتى القائد الذي سيقطع رأس الثور.

على ضفة النهر، رُبِطَ الثور إلى إحدى النخلات من قرنيه وساقيه، ينتظر ويخبط بأظلافه مُصدرًا خوارًا طويلًا ومنخفضًا يجعلك تحزن من كل قلبك. تشاهد القرية بأكملها الراقصين في النهر الضحل حتى تتلألأ كل مياهه بموجات صغيرة. يقترب الفتى القائد من زعيم القرية ويركع عند قدميه فيما يرقص حوله راقصون آخرون يرتدون أزياء النمور والثيران. يعطيه الزعيم ماشيتي حقيقيًا هامسًا بشيءٍ ما في أذنه، فيذهب الفتى ويقطع عنق الثور بحركة واحدة. يتطاير الدم على كامل جسده، وبيديه يمسح الدم عن قناعه؛ ثم يضعهما عند مكان الذبح جامعًا الدماء ليفرك بها جسمه. حين ينتهي يفعل الآخرون كلهم الشيء نفسه حتى تغطّي الدماءُ الجميعَ. يدورون ويدورون بأقنعة النمور والثيران حتى بووووم! يدقُّ الطبل.

يعلم الجميع أنه بعد القتل بالهيئة المتنكّرة، يجب أن تُزالَ الأقنعة.

يزيل الراقصون أقنعتهم.

تموت كل الأرواح ويصبح كل الفتيان رجالًا.

أفتح عيني وأرى أنني ما زلت في الحرب، وأفكر بأنه لو لم تأت الحرب لكنت قد أصبحت رجلًا بحلول هذا الوقت.

وإذا أغمضتُ عيني، رأيتُ موسم الأمطار في قريتي والذي يقولون إنه يجلب دائمًا تغييرات سريعة للغاية. يمكنك أن تكون في مكان ما ولديك خطة معينة ثم تجد أن العالم كله ينجرف من تحت قدميك. يمكن أن تكون سائرًا في طريق ثم تجد أنك تسبح في نهر. يمكن أن تبدأ يومك بجوٍّ جافٍّ ودافئ ثم تنهيه وملابسك صارت جلدًا آخرَ فوق جسمك. لا يوجد شيء مؤكد على الإطلاق، وكل شيء يتغيّر دومًا.

ليس الأمر كما لو أنني نمت يومًا واستيقظت في اليوم التالي وإذ هناك حرب، بل أننا لم نمتلك وقتًا كافيًا للاستعداد لهذه الحرب لأن كل شيء كان يجري بسرعة كبيرة حتى أننا لم نكن ندرك ما يجري حقًّا.

ذات يوم، أغلقوا المدرسة لأنه لم تعد هناك حكومة. جزء مني كان حزينًا لأنني أحبّ أن أكون في المدرسة وأتعلّم. جزءٌ مني كان سعيدًا لأن الجلوس في الصف الحارّ والتعرّق بينما الجميع يصدرونَ الضجيج، والصغار يبكون، يثيرُ غضبي. على أية حال، ليس لدينا أي شيء لنقوم به، لذا ذهبت في وقت باكر من صباح أحد الأيام إلى بيت دايك لأنني أعرف أنه دومًا يستيقظ باكرًا. أقف في الخارج أنتظره لأن والدته لا تحب أن نزعجها في وقت باكر من الصباح، لذلك أنتظر وأنتظر وأنتظر وأنتظر لفترة طويلة حتى باتت الشمس مكتملة في السماء، وبدأت الدجاجات تتقاتل بعضها مع بعض من أجل حشرة أو قمامة في المجاري. أنتظر ولكن لم يخرج أحد.

وهكذا كنت واقفًا خارج بيت دايك، أراقب وأرى حجمَه ومدى جماله. طلاؤه جميل يجعله يبدو جديدًا دائمًا، والنوافذ تبدو مغسولةً دائمًا، كما تبدو الأرض المحيطة بالبيت أنيقة جدًا لأن هناك من يجزّ العشبَ دائمًا ولأن والده يحرص على ألا يترك أحدٌ القمامة هناك، لذلك لا وجود لأشياء مثل الدجاج والماعز تأتي لتأكل وتوسخ المكان. لطالما رغبت في الدخول إلى البيت لكنني أعلم أنه لا ينبغي لي ذلك، لأن والدة دايك لا تريدني أن أدخل وأوسخ المكان بحذائي القذر.

أقفُ هذه المرة خارج بيت دايك ولا أسمعُ الأصوات المعتادة كالموسيقى أو الغناء أو البكاء أو الصراخ القادم من الداخل. أركض وأحاول فتح الأبواب وأطرق بيدي على القضبان الحديدية للنوافذ لكنها تبدو موصدةً بإحكام وهذا أمر غير طبيعي لأنّ شخصًا ما دائمًا في البيت. أشعر بوعكة في بطني لأن دايك أعزُّ أصدقائي في هذا الوقت، وآملُ ألا يكون قد حدث له أو لعائلته مكروهٌ. أجلسُ على الشرفة ولا أعرف ماذا أفعل كي أحلّ هذه المشكلة.

بينما أنا جالس، كان الطاهي يخرج من جانب البيت الخلفي، ويسألني عمّا أفعله
Telegram:@mbooks90
هناك في ذلك الصباح، ولماذا أجلس على الشرفة طالما ليس بيتي! لو كنت تنظر إلى وجهي حينها لرأيت السعادة تغمرني لأنني عرفت أن مكروهًا لم يحدث وأنهم ربما ذهبوا إلى مكان ما وسيعودون في وقت لاحق. كنت أنظر نحو الأعلى بسبب صوت الطبّاخ، لكنه بدا حزينًا رغم ابتسامه، وعيناه كانتا حمراوين ومنتفختين وكأنه قد بكى كثيرًا. ملابسه مجعّدةٌ، ومبقّعةٌ كما لو أنه كان يقاتل الطعام بدلًا من طهيه. كما أنّ يده التي يضعها على رأسي تفوح بشدة بروائح الدجاج واللحوم اللذيذة الأخرى.

أخبرَني بأن دايك ووالدته غادرا الليلة الماضية للقاء والده حيث يقيمون في بلدةٍ بعيدة. كنت أنظر فحسب. في بعض الأحيان، حين تسمع الأشياء التي لا تودّ سماعها، يتوقّف كل شيء في جسمك عن العمل، وكل ما بوسعك أن تفعله هو النظر لأن عينيك لا تتوقفان عن النظر أبدًا ما لم تصابا بالعمى. هكذا كنت أبدو لأنّ فمي لم يكن يعمل بما يكفي لأتكلّم؛ وحتّى ساقيّ بالكاد استطاعتا الحركة.

قال لي بابا توجّبَ عليهم أن يغادروا قبل أن تأتي الحرب وتخرّب هذا المكان، بينما أكتفي بالنظر، والغضب يفور في رأسي لأن دايك لم يخبرني بأنه سيغادر. لقد اعتدنا في كل الأوقات أن يخبر بعضنا بعضًا بكل شيء، لأننا صديقان مقرّبانِ مثل أخوَين تقريبًا. والآن أجلس ولا أعرف ماذا أفعل في يومي ما دام ليس هناك مدرسة وليس ثمّة دايك. شعرت بأن أحدهم جاء كي يأخذ مني كلّ ما أحبّ ويجعلني حزينًا. أرى الطبّاخ ما زال يبتسم لكنه حزين وراح يشتكي. رغم أنني عملتُ طباخًا لديهم طوال ذلك الوقت، إلا أن السيدة لم تترك لي شيئًا حتى أتمكن من العودة إلى بيتي. كوني لا

أملك المال مثل السيدة فهذا لا يعني أن لا عائلة لديّ لأبحث عنها، كان يقول لي.

كان جالسًا بجانبي، يمدّ ساقيه للأمام، وكنتُ أستطيع أن أراهما تمتلئان بلدغات البعوض وبقع داكنة أخرى. كنتُ أحسّ بشيء غريب في رأسي وبطني كلما نظرت إليه.

أقول له: أوه آسف آسف، لكنه لم يستمع إليّ لأنه مشغول بالتحدث إلى نفسه.

فليبارك الشيطان السيدة، ولتنزل عليها المصائب من الآن فصاعدًا، كان يقول وهو يطرد الذباب عن رأسه وقدميه.

ولأن الغضب ما زال يفور في رأسي، والطباخ يتصرف كالمجنون، فكرت في العودة إلى البيت. بينما أسير في الطريق، لا أرى سوى أقدام الأشخاص الذي يعيشون في القرية أو عادوا إليها، لأن الغضب كان يثقل رأسي ويجعله يميل إلى الأمام. ولهذا السبب لم ألقِ التحية على الكبار كما ينبغي، ولكن لا أحد يقول لي شيئًا لأن الجميع كانوا يكابدون قلقهم الخاص وتابعت طريقي حتى وصلت عند العجوز التي تجلس دائمًا على كرسيها، وتبيع الفول السوداني الذي لا يشتريه أحد لأن الجميع يخشى أن تكون ساحرة أو ما شابه، ألا تريد أن تحييني؟ هؤلاء الشباب ما عادوا يحسنون التصرف إطلاقًا، بل صاروا كالحيوانات. لا بأس. فلتلاحقك المتاعب أبدًا.

أتذكّر تلك المرأة حتى الآن لأنني أعتقد أن حياتي أصبحت بهذا السوء بسبب ما قالته لي.

أرى أمام عيني، بين يوم وآخر، نحولَ الأطفال الصغار. أصبحت بطونهم مدوّرة لأن الأجزاء الأخرى من أجسامهم بدأت تصغر. حين يركضون في أنحاء القرية يضطرون إلى تثبيت ملابسهم على أجسامهم كي لا تسقط؛ لأنّ المطاط لم يعد ضيقًا بما يكفي. بدث أختي بهذا الشكل وقد تمكّن الهُزال من رقبتها وذراعيها وساقيها. صارت أبطأ بأي نشاط تقوم به. حين تغسل الأطباق، كان رأسها يميل نحو صدرها وصار من الصعب عليها تحريك ذراعيها مما أدى إلى تناثر الكثير من المياه في كل مكان،

وجعل والدتي تصرخ. ورغم أنها تصرخ علينا طوال الوقت، كنت أعرف في أعماقي، لأنني سمعتها تصلّي أيضًا، أنها خائفة وحزينة لأننا صرنا نحيلين جدًا.

بدأ الناس يعودون وتغيّر كل شيء. أول الناس الذين وصلوا بدوا بحالة جيدة. بإمكانك أن ترى الخوف في أعينهم التي تتلفت إلى هذه الجهة وتلك، كأنهم يترقبون أن يقفز حيوان ما من الأدغال. لكن عندما عادوا، عادوا بالسيارات. كانت السيارات مليئة بالأشياء أكثر من الأشخاص. وصل الكهربائيون مع معداتهم والخياطون مع أقمشتهم والمصرفيون مع أموالهم.

وحين بدؤوا في القدوم بوسائل النقل والحافلات، كان هناك الكثير من النساء وأطفالهنّ، والكثير من الأشخاص الجدد، لدرجة أن كل شخص في القرية كان يرتدي ملابسه باكرًا كل يوم ويذهب للانتظار في محطة الحافلات أو موقف السيارات والبحث عن أقاربه العائدين إلى الديار، وأيضًا من أجل الدعاء لعودتهم بالسلامة.

ومن ثم قطعوا الكهرباء، لكن ذلك لم يغير الطريقة التي كنا نعيش بها كثيرًا. لا تستخدم والدتي الكهرباء للطهي أبدًا وراديو والدي يعمل على البطارية لذا استمرّت حياتنا بشكل طبيعي. واظب والدي على الذهاب إلى البلدة لحضور اجتماعات مدرسته، ولكن والدتي استيقظت يومًا لتجدني أنا ووالدي جالسين معًا ننظر إلى المكواة المحمّاة على النار وقد أحرقت قميصه. بدت البقعة بنية اللون ومتجعدة وبدا القميص كورق المرحاض. كاد والدي يبكي عاضًّا شفتيه. مسح العرق عن جبهته بظهر يده ونظّف أصابعه بإزاره.

أخبروني ألا أذهب إلى المدرسة بعد الآن. ما عاد هناك مدرسة، يقول من خلال القميص الذي أمسك به ورفعه إلى مستوى فمه. أريد أن أبكي من أجله لأنني أعلم أنه لن يبكي من تلقاء نفسه أبدًا. أريد أن أفتح فمي وأصرخ حتى يستيقظ الجميع ويستمعون إلى كل هذه المصائب التي جلبتها الحرب، لكن أمي وأبي يلتزمان الصمت، وهذا ما أفعله أنا أيضًا.

وقفت أمي أمام الفناء. ملابسها تجعدت عند الإبطين حيث يلتصق الشعر بعضه ببعض بسبب تعرقها أثناء النوم. لا تلتفت ناحيتنا، ولا تتحرك، ولا تمسك بالقضيب

الحديدي في الشرفة كي يساعدها على الوقوف. أبي يلمس لحيته متسائلًا عمّا علينا فعله ثم ينظر إلى أمي.

تقول: كفّ عن النظر إلي وابدأ بالصلاة. الرب يساعدك دائمًا حين تتضرع إليه. ثم تمشي إلى المطبخ وتتركني وأبي جالسين نحدّق في نباتات الفناء. يحني أبي رأسه ولا يقول شيئًا. أنا في حيرة. كيف لأبي أن يبقى جالسًا هنا مثل عنزة مستعدة للموت؟ نهضتُ كي أحضرَ الماء من أجل أن أستحمّ وتركت أبي الذي ظلّ في مكانه طوال اليوم. كان جالسًا فحسب، لا يقول أية كلمة لأي أحد، ولا حتى لأختي التي لطالما كانت تضحكه وتجعله يتحدث ويتحدث. لا أعرف إذا خلد إلى النوم في تلك الليلة لأنه كان لا يزال جالسًا هناك حين مررت لإقفال البوابة وتعليق المفتاح.

وذات يوم، بينما كنت أنظف الردهة، وأنحني مستخدمًا المكنسة لإزالة الغبار من كل زاويا الغرفة، يهرع والدي إلى الغرفة وهو يتصبّب عرقًا كأنما جاء راكضًا. أرى كيف يبلل العرق قميصه ويضفي لمعانًا على وجهه، بينما أقف هناك وأنظر إليه متسائلًا عما حدث وجعله يبدو هكذا. يصرخ بي: تعال، هيّا! علينا أن نذهب إلى الكنيسة الآنَ! أحاول تخمين ما حدث لأن اليوم ليس الأحد حتى. أريد أن أذهبَ لأغير ملابسي لكن والدي يطلب إلي أن أتحرّك بسرعة بسرعة وأحضرَ والدتي كي نذهب إلى الكنيسة. أتحرّك بسرعة وأركض إلى المطبخ حيث كانت والدتي تهمهم أمام قدر من الحساء، وبمجرّد أن تراني تدرك فورًا أن هناك خطبًا ما، لذا تهرع لرؤية أبي على الشرفة حيث ينتظر. وبعدها يصرخان فأسمع أمي تقول: هيييييي! الحرب قادمة أوه! الحرب قادمة.

أسأل عمّا إذا كنت أستطيع الذهاب معهما إلى الكنيسة، يقولان: نعم. يحمل والدي أختي التي كانت نائمةً لأنه ليس لديها شيء أفضل لتفعله، فيما أسير مع والدتي في طريق القرية نحو الكنيسة. حتى قبل أن ندخلَ، أسمعُ صوتًا عاليًا جدًا لا يمكن أن يكون ناتجًا عن الصلاة. الناس يصرخون ويتحدثون بصوت عال ولا أستطيع سماع حتى جملة واحدة مما يقال. حين دخلنا إلى الكنيسة كان الجوُّ حارًا جدًا ورائحته تشبه رائحة الحيوانات بسبب انقطاع التيار الكهربائي، فلا يمكن للمراوح أن تدور

وتدور كي تحرّك الهواء. يحاولُ كلُّ سكان القرية إيجاد مكان لهم داخل الكنيسة، بعضهم يقفون على المقاعد وآخرون يتكئون على الجدران، والجميع يتعرّق كما لو أننا مليون بقرة حُشرتْ لتعيش في المكان نفسه. أرى الكثير من الناس – حتى أولئك الذين لا يأتون إلى هذه الكنيسة أبدًا، كانوا جميعهم يتحدثون ويتحدثون ويصرخون ويصرخون كأن مكروهًا سيقع. يقف القسّ والزعيم في المقدمة، ويصرخان، ولغياب مكبرات الصوت لم يسمعهما أحد وكانت أصوات الجميع تعلو على صوتيهما. يغضب القس ويركض نحو مجموعة طبول كبيرة موجودة هناك ويقرع بقوة بقوة حتى ضجّ المكان بصوت بام! بام! بام! نسكت كلّنا. نسكت كلّنا وتبقى أصوات تنفّس حشد الناس.

لم يكن القس يرتدي ثوبه الأبيض حين كان يتجوّل في مقدمة الكنيسة. بل كان يرتدي قميصًا أزرقَ وسروالًا وقبّعة تغطي رأسه الأصلع. كان يصرخ ويصرخ: هل تسمعون! لا يمكننا أن نجلس هنا كالبقر إلى أن يجلبوا معهم الحرب! يقول الإنجيل إن الرب لا يساعد سوى أولئك الذين يساعدون أنفسهم. ألم يحفظ الرب بني إسرائيل حين اضطروا لمغادرة ديارهم؟ لذلك فلنرضِ الربّ ونغادر إلى أن ينتهي القتال في منطقتنا. وإلا فإنهم سيقتلوننا كلنا وحينها ماذا سنفعل؟ أضحك في أعماقي رغم أن قلبي يخفق بسرعة، بسرعة، مع كل هذا الحديث عن القتل لأني أفكر بوالدي الذي قال إن القس يعتقد أن بوسعه التحدث كثيرًا لمجرّد حصوله على شهادةٍ في اللاهوت، والتي لا تجعله أكثر من مُحاضر بارع في الثرثرة.

ثم ينهض الزعيم، بقميصه الأسود وقبعته الحمراء، ويقول: نعم، نعم، القسُّ محقٌّ. علينا أن نغادر. لقد قالوا لي إن الأمم المتحدة قادمة كي تساعدَنا على المغادرة، لذا حين يصلون سنذهب معهم. غدًا، سيذهب معهم على الأقلّ النساء والأطفال الصغار أولًا، وبعد أن نتأكد من أن كل شيء على ما يرام فيما يخصّ ممتلكاتنا، يستطيع الرجال أن يغادروا بأمان. هل هذا مفهوم؟

وبعد ذلك عمّ الصراخ: من هي الأمم المتحدة؟ ماذا عن مزرعتي؟ ماذا عن ماعزي؟ وماذا عن كل كتبي؟ أو سيارتي؟ آهٍ! ماذا عن كل هذه الأشياء! تأتي الأصوات من كل

الجهات في الكنيسة، وكلّما صرخ أحدهم بشيء ما، اتّجهتِ الرؤوس نحوه لسماع ما يقوله. تذمّر الناس كثيرًا لدرجة أن رأسي آلمني، لذا أقف بالقرب من أبي وأمي وأحرصُ على ألا أضايق أحدًا. حين ننتهي، يغادر الجميع الكنيسة دون أن يتذكروا تلاوة الصلوات، لأنهم خائفون من القتال الذي بات قريبًا جدًا. لا أسمع شيئًا، لكن والدي، الذي نجا بالفعل من حرب، يقول إنك حين ترى الطائرات وتسمع بووووم بووووم التي تعني أنها تقصف وترمي القنابل، ستعرف عندئذ أن الحرب قد جاءت.

في تلك الليلة، أعدّت والدتي عشاء كبيرًا يضمّ كل أطعمتي المفضلة، الأرز والحساء والكثير من اللحوم، لكن لا أحد، ولا حتى والدي الذي بإمكانه أن يأكل ثلاثة أطباق كاملة ويعود لطلب المزيد، كان باستطاعته تناول أي شيء على الإطلاق، على الإطلاق. بعد العشاء، أرتّبُ الطاولة وأصفّ الأطباق في إحدى الزوايا لأن الظلام لا يسمحُ بغسلها الآن، وحين ألجُ البيت سأرى والدتي تعبّئ الطعام في أكياس صغيرة، كأنما هي بقعة مظلمة أحاطَ بها الضوء المنبعث من المصباح. أذهب إليها وأربّتُ على مرفقها وأسألها: أين سنذهب؟ وتقول لي: سنذهب حيث نذهب وسنصل حين نصل. لا أعرف حتّى ما الذي تعنيه حين تقول هذه الأشياء، ولكني أسألها فيما بعد إن كانت خائفة، فتنظر إلي وتقرّبني وتعانقني حتى يستقر رأسي على صدرها. لماذا أخاف يا آغو؟ آهٍ؟ تقول. ألا تتذكر أن الرب يحمي الجميع ويحرص على ألا يصيبَنا أي مكروه؟ اذهب الآن وتجهّز للنوم. ولا تنس أن تصلّي. تذكّر مهما حدث فإن الرب لا ينسى أولئك الذين يصلّون له.

لذا أركض عبر الردهة نحو الغرفة التي أتشاركها مع أختي، وحين أصل هناك أرى أنها تضع سكينًا تحت فراشها. لماذا هذا هنا؟ أسألها بينما أنظر إلى السكين والمصباح بيدي، وتقول: من أجل الأعداء في حال جاؤوا، ثم تدير وجهها نحو الجدار. وأضحك ضحكة صغيرة، صغيرة، رغم خوفي لأن أختي تحاول أحيانًا أن تكون ذكية جدًا رغم أنها طفلة.

استلقيتُ للنوم في فراشي، لكن جسدي كله كان حارًا جدًا، والحكّة شديدة في كل مكان كأن النمل يلسعني. أحاول النوم، أحاول النوم، لكني لا أستطيع أن أغمض

عيني حتى. كما لو أنني أنتظر «سانتا كلوز»، كنت مستلقيًا في فراشي حتى منتصف الليل حين سمعت أبي وأمي يتحدثان. ماذا تعني بأنكما لن تأتيا؟ تقول أمي لأبي وأسمعه يردّ: كيف سيظلّ آغو معك طالما نحن من رجال هذه القرية؟ كيف سيكون الحال إن بقي كلُّ الرجال لحماية منازلهم فيما نحن نركض من مكان إلى آخر؟ آه؟ هذا لا يُعقل. وتقول أمي له: لا. لا. اطرد هذه الفكرة من رأسك فحسب. الرب ينهى عن هذا الشيء. ويقول أبي: أنتِ لا تفهمين شيئًا هنا. وتقول أمي: ماذا لو ذهبتما ومُتّما، ماذا سأفعل حينها؟ هل تريدني أن أجلس على قارعة الطريق مثل النساء المجنونات اللواتي ينتفن شعورهن ويبعنها؟ يصيح أبي: مهلًا لحظة، هذا واجبي! ومن واجبه باعتباره ابني البكر أن – لكن والدتي تصرخ: ابنك الكذا وكذا! أحيانًا أشعر أنك بلا منطق. دعني آخذه معي، حسن؟ إذا جاءت الحرب ومات الجميع، فمن يستطيع أن يقول شيئًا؟

بدأ بطني ينقبض بشدة وأنا مستلقٍ أفكّر في أنني لا أريد رؤية كل ذلك القتل، ولكنني أعلم أيضًا أنني لا أستطيع أن أترك أبي بمفرده هنا وأهرب لأن كل الرجال الآخرين سيضحكون عليه. أحدّق في السقف وأستمعُ إلى تدفُّق المطر باه باه باه على السقف وإلى السحليّة التي تحاول العثور على مخبأ من الأمطار الغزيرة ولكنني لا أتمكن من النوم لأنني خائف كثيرًا، كثيرًا.

في صباح اليوم التالي، يوقظني والدي لكنني متعب جدًا، ووجهه أيضًا يبدو في غاية التعب. يتحرّك بسرعة كبيرة وانفعال شديد. أسأله: إلى أين سنذهب؟ يقول لي: لا تقلق. لا تقلق.

لاحقًا، نسير جميعًا إلى مركز القرية، أمي وأختي تحملان بعضَ الأمتعة الصغيرة التي ستبقى معهما. وقفَ الكثير من الناس هناك كما في الاحتفالات، لكن لا أحدَ فيهم يبتسم إطلاقًا. عند كل زاوية تقفُ عائلة، بوسعك أن ترى أمهاتٍ يجلسن مع أطفالهن الصغار، الصغار، بجانب حقيبة مقلمة بالأحمر والأبيض تحتوي على كل شيء استطعنَ أن يأخذنه دفعة واحدة. كنا ننتظر فحسب، ننتظر حتى بدأ المطر يهطل على كل شيء ويلتصق على الأشياء مثل ملايين الحشرات الصغيرة. كان

الجميع يحاول أن يدخل إلى بناء أو آخر في ساحة القرية من أجل الانتظار وكانوا كلّهم حَزانى. الرجال متعبون والنساء خائفات. وحدهم الأطفال الصغار، الصغار، لا يعرفون شيئًا عمّا يجري.

نسمعُ في وقت متأخر، بعد الظهر، ضجيجَ شاحنات كثيرة، شاحنات بيضٌ كبيرة، مكتوب على جوانبها UN بالخط الأسود. يقفز جنودٌ يعتمرون خوذاتٍ زُرقًا وبزاتٍ مموَّهة خُضرًا، من الشاحنات التي ما زالت تتحرّك وإطاراتها تسحق كل ما على الأرض. يصرخون لمنع الفوضى، ثم يصرخون علينا كي نصعدَ الشاحنات، فأنظر إلى أبي وهو يساعد أمي في حمل الحقيبة إلى الشاحنة مع كل النساء الأخريات وأطفالهن. أرى فم والدي كيف يتدلّى من طرفيه، وكيف أنه لا يريد ترك والدتي وأختي تذهبان. تلمسني أمي وتمسك بي وتوصيني ألّا أنسى الصلاة، الصلاة طوال الوقت، وألّا أقلق، وأننا جميعًا سنلتقي من جديد عما قريب. أرى أبي يدفع أمي إلى الشاحنة وأتذكر كيف شعرتُ بملمس يدها في يدي ثم أتذكر أنني واقفٌ مع والدي بينما هي وأختي تذهبان بعيدًا على متن الشاحنة، وتلك كانت آخر مرّة أراهما فيها.

أرى أمام عيني رجال القرية وفتيانها في غاية الحزن لأنّ الحرب تأخذ منا كل شيء. لا شيء في القرية بقي على حاله، مع رحيل النساء اللواتي يطبخن الطعام ويبعن الفول السوداني ويتحدثن ويتحدثن، لذا التزم كل الرجال بالصمت والهدوء كأن شخصًا قد مات. أرى كل هذا وأرى ما حدث ذات يومٍ، حين لم أبصر شيئًا سوى الضوء العابر من ثقب في السقف، لكنه لم يكن كافيًا. المكان برمته حارٌّ جدًا وأنا أتعرّق بغزارة. سروالي القصير مبلل وقميصي ملتصق بجسدي كجلدي. كم عددنا نحن الجالسين في هذا المكان؟ لا أعرف، لكني أظن أننا عشرة أو خمسة عشر أو ربما أكثر. عددنا كبير لدرجة أن المكان امتلأ برائحة الخوف وطعم كالملح. أسمع في الخارج أصوات إطلاق النيران في كل مكان، والصياح والصراخ.

أسألُ والدي: هل سيقتلوننا؟ هل سيقتلوننا؟

يصفعني أحدهم على وجهي موبّخًا: اخرس! هل أبي مَن صفعني؟ الظلام شديد، ولكنني أعلم أنه ليس هو. كان فمي ممتلئًا بالدم وأعرف أن لون الدم أحمرُ، أحمر في

كل مكان. أمسح فمي بذراعي لكن العرق يحرق شفتيّ بشدة. كنت أريد أن أرى، لكن الضوء الوحيد الموجود هنا يدخل من ثقب صغير صغير في السقف. كان الباب مقفلًا وأنا محاصر. كلنا مُحاصرون بسبب إطلاق النيران في الخارج.

أسمع صوت أبي: انظروا. يمكن أن تموتوا الآن أو في وقت لاحق. ليس هناك فرق. هل تريدون الجلوس هنا إلى أن يأتوا ويحرقونا ونتحول إلى رماد؟ آه؟ تذكروا الآن أننا لا نستطيع أن نموت إلا مرة واحدة. إذا لم نستطع أن نموت واقفين على أي حال، فسوف نمشي راكعين على ركبنا مثل أسلافنا. أعرف أنه ليس بالأمر الجيد أن نمشي راكعين على ركبنا، وأنه علينا أن ننظر إلى الأعلى حين يتحدث أحد إلينا، وأنه حين يتحدث إلينا، فإن بصاقه سيطير ويسقط على وجوهنا. يقول أحدهم: أفضّل أن أعيش هنا على أن أخرج وأموت كالحيوان. يتهامس الناس: أجل، أجل. ويهمس والدي: إذًا فأبناؤكم هم من سيبصقون على قبوركم حينها.

يتهامس المزيد من الناس: أجل أجل. هذا صحيح. هذا صحيح.

هل أنتم مستعدّون؟

لا أحد يقول شيئًا على الإطلاق، لكنني أسمع احتكاك الماشيتات بالأرض. ما زال بإمكاننا سماع صوت الرصاص والضحك في الخارج، مثل قطيع ماعز يمضغ قطعًا معدنية. أنا خائف جدًا وأشعر بأن قدميّ ليستا لي، بل للشخص الذي بجانبي. وأشعر بأن يديّ مصنوعتان من الحجر. كان والدي يخبرني أنه حين نخرج عليّ أن أركض وأركض فقط. أركض في الاتجاه الآخر. حسنٌ؟ يقول. حسن. لن يراك الأعداء إذا ركضت بسرعة. أسأله عما إذا كنا سنموت، لكنه لا يقول شيئًا. كان كل شيء صامتًا باستثناء أصوات أنفاس الناس مثل ماشية في حظيرة. هل سنموت؟ أسأل. هل سيقتلوننا؟ أتلقّى صفعة أخرى على وجهي.

كان صوت الرصاص عاليًا جدًا وهناك الكثير من الصراخ والصياح والضحك. إنهم يعثرون علينا. كان أحدهم يئنّ ويتمتم بأنهم سيستخدمون أجسادنا بعد أن يقتلونا. سيلقون بنا في شاحنة واحدة ونحن ننزف بشدة حتى تتساقط دماؤنا من الحافة وتتطاير في مهب الريح. سيأخذوننا إلى الأدغال كي لا نُدفن في قريتنا

وسيتركوننا هكذا حتى تأكلنا الحيوانات. يقول شخص آخر إنهم سيلعبون بأجسادنا وسيستخدمون أمعاءنا كسوط يجلدوننا به وسيقطعون أيدينا ويمسكون بها كي يصافحوا بها بعضهم بعضًا. شخص آخر يقول: إنهم الشيطان، أرى ذلك بأم عينيّ. إنهم يشبهون المسوخ، لديهم نصف وجه وأظافر طويلة وأسنان حادة. يقول إنهم يشبهون الشيطان لأنه لا يمكنك أن تعيش بما يكفي لتراهم، وإذا عشت فعلًا، تكون قد أصبحت شيطانًا مثلهم.

اخرس! اخرس! ليس هناك وقت، يصرخ أحدهم ثم أسمع شخصًا آخر يعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، وينفتح الباب سامحًا بدخول ضوء ساطع يعميني. لم أعد أرى شيئًا، ضوء أبيض فقط في كل مكان. أسمع الجميع يأخذون نفسًا عميقًا وأنا آخذ نفسًا عميقًا أيضًا. للهواء رائحة الخشب المحترق والبارود والبنزين. أسمع المزيد من الصراخ وأبي يقول: اركض. اركض! اركض! اركض يا آغو! وأقول: سأركض لو أن الرجال الآخرين لا يمسكون بقدمي، لكن أحدهم يدفعني فأركض. أرى جنديًا بوجه أبيض وابتسامة بيضاء عريضة. أرى الرصاص يجعل والدي يتراقص بأكمله وذراعاه ترتفعان عاليًا نحو السماء كأنه يمجّد الرب. أسمع ضحكاتٍ رهيبة وأركض، أركض، أركض في الوحل، والوحل يحاول أن يقيدني. أشمُّ رائحة تشبه رائحة محل الجزارة وأسمع: إنهم يقتلونني أوه! يا يسوع المسيح ساعدني! ساعدني! أرى رجلًا يركض بلا رأس كالدجاجة وأرى ذراعًا هنا وساقًا هناك. ثم يصبح كلّ شيء أبيضَ وكل ما أسمعه هو تم تام، تم تام، تم تام، وأصوات أنفاسي.

هل كل ذلك حدث لي حقًا؟ أحسّ بأن كلّ ذلك يحدث لي مرة أخرى وأنا لا أستطيع أن أصدّق حتى.

أفتح عيني وأرى الظلام في أماكن والضوء البرتقالي من النار والمصباح في أماكن أخرى. أرى رجالًا يستلقون في كلّ مكان والبنادق بجانبهم. قلبي يخفق يخفق، وبسرعة كبيرة. أشعر بالعطش.

نحن في المخيّم، وأنا أشاهد الشمس تهبط خلف التلّة كأنها لا تريد أن ترانا بعد الآن. تنبعث منها كل الألوان وتبدو كلهيب الجحيم. تأكل قمم كل الأشجار وتجعل كل الأوراق لامعة، لامعة. فجأة حلّ الليل. تتحوّل الأرض من البرتقالي الساطع إلى الأسود وأرى البخار يتصاعد في الظلام، طاردًا الشمس بعيدًا.

في هذه اللحظة، أرى كل أكواخ المخيم الذي نعيش فيه، وألاحظ أنها ليست مجرّد أماكن مرعبة نبيت فيها فحسب، بل تشبه بيوت قرية بسيطة مبنية من جذوع النخيل والقش. أنظر وأفكّر في أنه لولا الحرب، لكان منظر هذا المكان جميلًا جدًا. تمتدّ كل أشجار النخيل، اللطيفة جدًا معنا والتي تمنحنا الزيت والخمر، عاليًا نحو السماء تمشّط غيومها بعد هطول المطر. حين يأتي الليل، لا بُدّ أن الطيور والحيوانات يغني بعضُها لبعضٍ قبل أن تخلدَ للنوم.

لكننا وصلنا هنا وجلبنا الحرب. وحين وصلنا قلعنا النخيل لبناء مخابئنا، ولأنّنا لم نبقِ لها مكانًا تستقرّ فيه، هاجرت كل الطيور بعيدًا. الليل شديد الهدوء الآن لأننا جائعون جدًا، نأكل كلّ شيء يمكن أن يصدر صوتًا. أما تلك الأشياء التي لم نتمكن من اصطيادها فقد توقفت عن إصدار الأصوات كي لا تُؤكل. خلف هذا المخيم هناك ينبوع كان يتلألأ تحت الشمس الصافية، رائحته منعشة تضجُّ بالحياة لدرجة أنك تستطيع أن تلاحظ مدى استمتاع الأسماك والضفادع وفراخها كأنّها في الجنة، لكننا رمينا فيه القمامة واستخدمناه للاستحمام وقضاء الحاجة فأصبح منظره مروّعًا.

أرى الرجال يفرغون الشاحنات من كل الأشياء التي سطونا عليها في مختلف القرى. أرى الشمس تغيب رويدًا، رويدًا، من السماء وكيف أن هذه الألوان كلها تجعل جلد سائقي الشاحنات لامعًا وهم يفحصون المحرّكات للتأكد من أنها ستعمل جيدًا في اليوم التالي. وفي الضوء الضئيل الضئيل، تلمع أجسادهم الملوثة بالزيت رغم حلول الظلام. ومع ذلك، حين أمعنُ النظر يختفون كالأشباح. لا أشاهد سوى أعينهم ترفّ كالخنافس المضيئة التي تغزو المكان في هذا الوقت. يتجهون نحو الينبوع للاغتسال وغناؤهم يجعلني أشعر بالاسترخاء إلى حدٍ ما. أمدّ ساقيّ إلى الأمام وأضع يديّ وراء رأسي.

يشعل الجنود النار كل ليلة ويجلسون ويتحدثون. بعد قليل من الوقت، أنهض وأذهب للجلوس معهم حول النار. الجوّ دافئ وهذا ما يجعلني أشعر بتحسّن طفيف، وأكون سعيدًا بعودتي إلى المخيم من جديد لأن المكان هنا جميل – على الأقل أجمل من أن تكون في مكان مليء بالأشخاص الذين يصرخون طوال الوقت لأنك ستقتلهم. أسترخي هنا لأنه لا يوجد أعداء وليس عليّ أن أبقى متيقظًا لأنهم يريدون قتلي. أجلس هنا وأستمع إلى الرجال الآخرين يتحدثون ويتنفسون، ويتنفسون، وبطريقة ما يبدون على قيد الحياة. لكننا في الواقع ننتظر الموت فحسب، وما زلتُ حزينًا جدًا. لا أحبّ أن أكون حزينًا لأن الحزن هو ما يحدث لك قبل أن تصبح مجنونًا. وحين تصبح مجنونًا، فهذا يعني أنك لن تشارك في القتال. لذا ليس بوسعي أن أكون حزينًا لأنني إن لم أقاتل، إمّا سأموت أو سيقتلني القائد. وإن متُّ، فلن أستطيع العثور على أمي وأختي حين تنتهي هذه الحرب. أفكر بيني وبين نفسي في كل الأشياء التي سأفعلها حين تنتهي الحرب إن بقيت حيًا. وأفكر بأنني سألتحق بالجامعة للدراسة. أظنّ أنني أرغب في أن أكون مهندسًا لأني أحب مشاهدة الميكانيكيّ وهو يعمل على الشاحنة حتى لو لم أحصل على فرصة أن أجرّب بنفسي ما يقوم به. وأحيانًا أرغب في أن أكون طبيبًا لأنني حينها سأتمكن من مساعدة الناس بدلًا من قتلهم وهذا قد يغفر لي كل خطاياي. أظن أنني لو كنت طبيبًا أو مهندسًا، فسأكون من أولئك الأشخاص الكبار. أعرف ذلك لأن أغنى رجل في قريتنا – رغم أنه كان مسنًا ومات قبل أن تأتي الحرب – كان طبيبًا، ودائمًا ما كان لديه القليل من المال يعطيه لسائله. لقد كان رجلًا كبيرًا ولديه بطن ممتلئ لأنه يملك الكثير من المال ليأكل الكثير من الأشياء هنا وهناك. وحين سأصبحُ رجلًا كبيرًا، أعلم أنني سأكون قادرًا على أن أقرأ كتبي دون أن يضايقني أحد، كما اعتادوا أن يفعلوا من قبلُ ولن يستطيع أحدٌ أن يقولَ لي شيئًا. أنا من سيقول كل شيء للناس، وسأخبرهم أن يفعلوا كذا وكذا وأتأكد من أنهم يحنون رؤوسهم وينظرون إلى الأرض حين يأتون لتحيتي، وسيحضرون لي الماء أو الطعام حين أريد ذلك. وسأكون بدينًا لأن الرجال الكبار بدينون دائمًا؛ حيث لديهم دائمًا الكثير من الطعام ليأكلوه. سآكل كل الطعام حتى تمتلئ معدتي وسآكل المزيد، والمزيد، حتى تصبح معدتي ممتلئة أكثر وأكثر، وأعجز عن رؤية قدميّ حتى لو مددتُ رقبتي بأقصى ما أستيطع إلى

الأمام. أعتقد أن هذا أمر جيد لأنني حتى لو لم أتمكّن من تناول الطعام لفترة طويلة بعد ذلك فعلى الأقل لن أتحوّل إلى شبح كالذي أنا عليه الآن بسبب الحرب.

ثم سأعود إلى الكنيسة. سأعود إلى الكنيسة لأطلب الغفران من الرب كل يوم. سأعود إلى الكنيسة وأجلس على المقعد تحت المروحة التي ستسقط يومًا وتسحقني، ولن ألقي بالًا للشظية الخشبية التي تؤذي ساقي لأنني أصبُّ كل اهتمامي على يسوع. لن أزيح عيني عن تمثال يسوع بل سأظل جالسًا هناك أنظر إليه وأنظر إليه؛ حتى يأتي يوم يخبرني فيه بأن كل شيء على ما يرام.

أشمّ رائحة الطعام الذي يطبخونه وهذا ما يجعلني جائعًا جدًا. ماذا علي أن أفعل؟ حين نقتل الناس، تتطاير دماؤهم على كل الطعام الذي سرقناه منهم. إنه يلطخ كل حيواناتهم وخضراواتهم. وجدنا مُزارعًا وعنزته فقتلناهما. لا أعرف الآن مَن المُزارع ومَن العنزة. حتى نبات اليام عليه الكثير من الدم. حتى الأرز عليه الكثير من الدم. يقول الجنود إن لا شيء سيؤذينا طالما نغليها، لكني لا أظن أن يمكن للغليان أنه يزيل دماء المزارع حتى لو ظللنا نسلق الأرز واليام إلى الأبد. لكنني جائع وآكل الخضار والفواكه والأرز واللحوم وأكفّ عن التفكير. آكل فحسب. حين نأكل يجب ألا نتكلّم. نحن جائعون جدًا لذا نأكل ونأكل حتى تمتلئ بطوننا ونعجز عن فعل أي شيءٍ سوى النوم، النوم.

ننام في الأكواخ الأربعة التي بنيناها من جذوع النخيل والقش. ليست أكواخًا، مجرّد سقائف تمنع عنّا لسع المطر، لذلك تأتينا كل الحشرات خلال الليل. مساحتها لا تكفي الجميع لذلك ينام بعض الجنود في الخارج ويسقط عليهم المطر. لا حيوانات تأتي لتأكل أحدًا لأنها كلها هربت بعيدًا وخافت منا كثيرًا؛ لدرجة أنها لا تفكر في العودة.

نستلقي جميعنا للنوم، لكنني لا أنام. لا أستطيع النوم. لا أستطيع النوم أبدًا. أنصت وأنصت فحسب. لا ضجيج. ثم أسمع صبيًا يتكلم ويتكلم. نناديه باسم غريوت، الحكّاء الشهير، لأنه يروي قصة دائمًا قبل أن نغفو. وتلك هي القصة التي رواها:

كنت مع والدتي حين اندلعتِ الحربُ، يقول. بهذه الطريقة يبدأ كلامه كل ليلة بينما

نحاول أن ننام. كنا في السوق لشراء بعض الطعام فلم يكن لدينا شيئًا لنأكله، ولا حتى قشرة كاساڤا. في السوق أسمعُ فجأة بووم! أسمع انفجارًا وبعدها تبدأ الأرض بأكملها تهتزّ وتهتزّ. ثم جاء طيّارو الحكومة بطائرات تحلّق على ارتفاع منخفض وتهدر بصوت عالٍ، وكنت أغطّي أذني، والبراميل تتصدّع بام بام بام لأن الطيارين يطلقون النار تكا تكا تكا والجميع يركض بهذا الاتجاه أو ذاك. بعضهم يختبئ تحت عربة يد. البعض يختبئون في كنيسة. آخر يقفز في حفرة. لا أعرف أين أختبئ لذا أستمرّ في الركض الركض على طول الطريق. أسمع بووم أخرى تسقط بجانبي تمامًا. ثم أشعر بالنار في جسدي لكني لم أكن أحترق. حين أنظر للأعلى أرى الناس معلّقين من الأشجار مثل قطع اللحم. الرؤوس تتدلّى مثل ثمار جوز الهند قبل أن تسقط على الأرض. آه آه. لاااا!

لا صوت.

لا يستمر الصمت طويلًا لأنه يعاود الحديث. يقول: أمي. أمي. هيييي الآن. أمي ماتت. بات جسدها لحومًا معلقة على الشجرة. ثم يسعل ويبدأ بالارتجاف – أسمع صوت اهتزازه على الأرض حيث يرقد.

وهناك الصبي الذي لم يأتِ من قرية، ندعوه «بريتشر»، أي الواعظ. جاء من الأدغال. يتقلّب في نومه وهو يردد أغنية لم أسمع بها من قبل. لك المجد والكرامة. لك المجد والكرامة أيّها الربّ، يغني بصوته العميق الذي يخيفني لأنه يبدو قادمًا من مكان بعيد جدًا، من الأرواح. لدى بريتشر إنجيل يستخدمه وسادةً أحيانًا. إنجيله ممزّق لدرجة أنه لا يمكن أن يبقى متماسكًا، وعليه أن يربطه بشريط من قميص قديم. يبقيه في جيبه مع السكين والرصاصات الاحتياطية.

لكنه نائم وما زال يغني: لك المجد والكرامة. لك المجد والكرامة أيّها الربّ، مرات ومرات. لم أغفُ، غنيت معه رغم أنني لا أعرف الكلمات. لأنك أنتَ خلقتَ كل الأشياء وهي بإرادتك كاااائنة وخُلقت. لك المجد والكرامة، وتستمرّ الأغنية مجددًا ومجددًا.

فجأة يسطع في وجهي ضوء يكاد يعميني حين أفتح عينيّ. أتوقّف عن التنفس لأنني أرى وجه ستريكا شبيهًا بروح أو شيطان. يبدو جلده تقريبًا كالخشب المحترق

أو الفحم، ملتصقًا على وجهه بشدّة بحيث تبرز عظام خديه بشكلٍ حاد. أقول: اتركني، دعني وشأني. ثم أنظر إلى عينيه وألاحظ أنه يحاول إخباري أنني لا ينبغي أن أبقى مستلقيًا هنا وعليّ أن أسرع – القائد يريد أن يراني الآن فورًا. لا أحبّ ذلك، لكن يجب عليّ أن أذهب وإلا سيغضب كثيرًا. أنهض، ولكن الأمر ليس سهلًا. وحين أقف وأمدّد جسدي وأرى ستريكا يعود بسرعة إلى حيث ينام، تحت إحدى الشاحنات، مع كل السائقين. ألتقط السكين الذي أبقيه معي دائمًا تحسبًا لقدوم الأعداء وأقفز فوق رؤوس الناس وأقدامهم حتى أصل إلى مكان القائد. أسير في الظلام كما يسير حيوانٌ ليلًا. الهدوء يعمّ هذه الليلة وأظن أن ذلك بسبب القتل الذي نقوم به. أسير هكذا وأمرّ بجوار الناس وفوق بنادقهم وسكاكينهم وأحاول ألّا أوقظ أحدًا حتى لا أسبّب أي ارتباك.

ثم أمرّ بجوار الجنود الآخرين نحو مقرّ القائد وأراه عبر الناموسية يمشي ذهابًا وإيابًا. هو الوحيد الذي يملك ناموسية. أرى ظله وهو يتحرّك في أنحاء الغرفة وأفكّر في أن الرجل الكبير فقط من يمكنه أن يلقي بمثل هذا الظل الكبير.

حين أصل إلى الكوخ، أنظر عبر الناموسية وأرى القائد. يلقّبونه بالرجل الذي جنّن الأعداء. خاض العديد من المعارك على الرغم من أنه صغير السن، ويروي دائمًا القصص عن أناس يتعاملون مع الموت كالعشاق أو كالأطفال الذين يستطيعون القتل حتى قبل أن يتمكنوا من الكلام. يقول دائمًا إنه رأى أشياء من شأنها أن تجعل الشيطان يركع على ركبتيه ويستجدي الغفران. يقول دائمًا إنه أكل أناسًا ولكن المذاق لم يكن طيبًا. ويقول إنه رأى أناسًا يأكلون أناسًا كما يأكلون اللحوم الحقيقية.

أنتظرُ في ظلام الخارج وأجهّز نفسي للدخول. وأفكّر في كل الأشياء الجيدة التي أستطيع تذكرها، لأننا عندما نفكر في الأشياء الجيدة لا تحدث لنا الأشياء السيئة.

كلما أذهب لرؤية القائد أفكّر بأنه لا ينبغي لي أن أدخل لأنني أعرف ما يريد أن يفعله بي. أفكر في كل مرة أن عليّ أن أخبره بأنني لا أريد مواصلة القتال وأن عليه أن يتركني أذهب وأصبح لاجئًا وبذلك لا أكون مضطرًا على الأقل لقتل الناس. لكنني أعرف إذا ما قلتُ له ذلك فسيفعل نفس الأشياء التي يفعلها حين لا يكون سعيدًا،

سيبتسم ويلعق أسنانه بلسانه، ثم سيضحك، لكنها تلك الضحكة الغاضبة التي تصدر عنه حين يشك بأن أحدهم جاسوس.

يجلس القائد على الأرض وخرائطه الكثيرة بجانبه. رغم أنني واقف عند المدخل منذ فترة طويلة، لكنه لم ينظر إلي. أسعل كي أجعله يعرف أنني هنا، لكنه لا ينظر إلي، يبدو متعبًا جدًا، مثلنا نحن البقية، لأنه لا يرتدي زيه العسكري. يرتدي إزارًا يحيط بخصره وساقيه وقميصًا متسخًا فحسب. يركع على الأرض ويمسح العرق عن رأسه بنفس المنديل الأبيض القذر الذي أراه يستخدمه في كل شيء يقوم به. يبدو كأنه يتحدّث مع نفسه بسبب كل الأشياء التي يحاول النظر إليها في الضوء الخافت جدًا لدرجة أنني لن أرى يدي إذا رفعتها أمامي. حين يكون على الأرض هكذا، يبدو شكله غريبًا بعض الشيء، حيث يضع كل أصابع يده في فمه ويفرك قمة رأسه الأصلع بيده الأخرى.

يقول لي قبل أن أدخل: لماذا تأخرت؟ ثم يقول: اجلس هناك، وهو يشير إلى سرير قماشي في زاوية الغرفة. إنّه القائد لذلك لديه دائمًا سرير ينام عليه بينما نحن البقية نتوسّدُ أي شيء نعثر عليه – إذا كنتَ محظوظًا فقد تجد حصيرة ولكننا ننام في معظم الأوقات على الأرض. لكن هذا لا يغيّر ما كنت أفكّر فيه حين كنت واقفًا عند الباب، لأنني لا أحبّ رائحة غرفته إطلاقًا، فهي تشبه رائحة الحظيرة بعد أن تطرح الحيوانات فضلاتها، وتجعلني أشعر بوخز في أنفي كأنني أتنفس شيئًا حادًا جدًا... كالمعدن. لا أريد أن أتحرك أيضًا لأنني أخشى الوقوع في ورطة حتى لو لم أرتكب أي خطأ اليوم. لذا أمشي ببطء، ببطء، على حافة الكوخ وأشعر بأغصان القش تنغرز في مؤخرتي وأنا أنسلُّ نحو السرير. حين وصلتُ وجلستُ هناك، كان لا يزال ينظر إلى الخريطة ويرسم عليها بالقلم أشياء رغم أن الظلام شديد وبالكاد يَرى. أفرك الوحل عن قدمي وأشبك ذراعيّ في حِجري وأنا أفكّر في مدى غرابة الأمر، أن كل هؤلاء الرجال ينظرون إلى البلد بأكمله على الخريطة كأنه قطعة لحم يمكن تقطيعها بالسكين.

يسعل القائد ويفرك رأسه ويتحدث إلى نفسه قبل أن ينفخ أخيرًا على الشمعات،

واحدة تلو الأخرى، حتى يسود الظلام في الغرفة. حين ينتهي، أنظر عبر الناموسية إلى النار التي أستطيع أن أراها في الخارج. لقد خمدت كثيرًا، لكنني ما زلت أريد أن أكون في الخارج حيث ينام الجنود الآخرون، حيث يتحدث غريوت ويغني بريتشر، لكنني لا أقول ذلك للقائد. يقول لي: اخلع ملابسك.

لا أريد أن أخلع ملابسي لكنني لا أقول ذلك لأن القائد أقوى مني ولأنه أحيانًا يقدم لي معروفًا صغيرًا صغيرًا كأن يعطيني المزيد من الطعام أو الحماية أو أشياء أخرى كقميص أو بنطال مقابل القيام بهذا الشيء معه. حين يمنحني هذه الأشياء أشعر بالقليل من التحسّن لأنني أعلم أنه يستطيع أن يفعل ما يفعله بي دون أن يعطيني شيئًا. أسمعه يمشي نحوي على السرير. ينزع عني ملابسي ثم يجلس بجانبي، ويتنفّس بقوّة لكن ليس كأنه يركض بسرعة ويحاول التقاط أنفاسه، بل بشكل مختلف، يتنفس في أذني وهو ما لا أحب أن أسمعه أبدًا أبدًا. ثم يلمسني بأصابعه على كامل جسدي فيما تزداد قوة تنفسه. وفي كل مرة يفعل ذلك معي يقول: هذا ما يجب أن يقدّمه الضابط لجنوده. الجندي الصالح يطيع كل الأوامر وأنا آمرك بأن تدعني ألمسك بهذه الطريقة. لا أريد أن أكون جنديًا صالحًا ولكنني لا أقول ذلك. لا أريد أن أكون جنديًا من الأساس. لا أريد أن أشعر بأصابعه تسري فوق جميع أنحاء جسدي. لا أريد أن يلمسني بلسانه وأحسّ به كالبزّاقة على جسدي. لا أريد ذلك على ظهري أو على ساقيّ. وأفكّر في أنه ليس من الجيّد للقائد أن يفعل ذلك بي. لكنني لا أقول شيئًا من هذا. لا أقول شيئًا على الإطلاق. هذا الشيء الذي يفعله بي هو ما يغضبني ويجعلني حزينًا. أعرف أني لست الوحيد الذي يفعل به ذلك، ولكن هذا لا يجعلني سعيدًا.

يلمسني القائدُ ويقرّب رأسي إلى الشيء الواقف بكل يقظة. وبينما يفعل ذلك، أشمّ رائحته وأشعر برغبة شديدة في التقيؤ، وأفكر بالمرة الأولى التي فعل فيها ذلك وصاح بي كي ألمس جنديّه هذا. يبدو وكأن ذلك حدث منذ وقت طويل طويل، لكن هذا لا يهمّ لأن كل مرة تبدو كالمرة الأولى. في المرة الأولى كنت محظوظًا حقًا لأننا لم نكن في مكان كهذا، وكان لدينا سرير حقيقي لا كهذا السرير الخفيف. ومع ذلك، ففي تلك المرة طلب مني الركوع على الأرض وراح يخلع حزامه. خفتُ كثيرًا وظننت

أنني ارتكبتُ خطأ وأنه سوف يضربني بسبب شيء فعلته حتى دون أن أعرف ما هو. في تلك المرة كان يقول: استرخِ. لن أضربك. ثم يقول: اخلع ملابسك.

لذا أخلع ملابسي. وبعد أن يجعلني ألمس جنديه وكُل تلك الأشياء بيدي ولساني وشفتي، يطلب مني أن أركع ثم يدخل بي مثلما يحدث حين يخطئ ذكر الماعز ويدخل بذكر آخر بدلًا من الأنثى. حين تشاهد ذلك، تعرف أنه ليس أمرًا طبيعيًا. أما أنا، فلم أكن أقاوم، وأعرف أنني إذا قاومته سيقتلني، وأنا لا أريد أن أموت، لذا أتركه يتحرك ذهابًا وإيابًا رغم أنه يؤلمني كثيرًا. في المرة الأولى، حين كان لا يزال لدينا طعام وأشياء أخرى، دهنَ كاملَ جسدي بزيت النخيل لتسهيل الأمر، وقال: هكذا لن تتألم كثيرًا. أحيانًا حين لا يكون زيت النخيل كافيًا أحس باحتراق في مؤخرتي وكأن فيها نارًا.

في المرة الأولى، بعد أن انتهى وغادرث، كنت على وشك الاستلقاء لكنني لم أستطع. سألت ستريكا إن كان قد تألم بشدة في المرة الأولى، فرسم لي في الوحل صورة رجل ينحني ويداه على الأرض ومسدّس يطلق النار في مؤخرته. كانت الصورة مضحكة للغاية لكنني لم أبتسم. شعرت بأنني لن أبتسم مرة أخرى بعد الآن. قررت الرحيل لأنني شعرت بأنني أنزف ولا أريد أن أنزف أمامه أو أمام أي جندي آخر، وإلا سيضحكون عليّ وينادونني امرأة. لذا تركت ستريكا في الظلام حيث كنا نائمين وأخذت المصباح ورحت أبحث عن الينبوع. لم أخف تلك المرة لأنني كنت غاضبًا جدًا ومشوّشًا للغاية بشأن ما حدث لدرجة أنني واصلت السير في الطريق دون أن أفكّر بأن حيوانًا أو روحًا أو شيطانًا يمكن أن ينال مني. وحين بلغتُ الينبوع، تركت نفسي أسقط في الماء إلى الوراء، وغُمرت مؤخرتي أولًا، ثم شعرت بالماء يرتفع حتى يصل إلى مستوى صدري ويحيط بكامل وجهي. لو أنني فتى شجاع، لابتعلت الماء أو الحجارة أو أي شيء يجعلني أتوقف عن التنفس وأغرق إلى القاع حيث يمكنني أن أبقى إلى الأبد، لكنني لا أريد أن أموت بهذه الطريقة لأن الأسلاف لا يسمحون لك بأن تأتي وتعيش معهم. فضلًا عن أن الروح تعيش في المكان الذي تركتْ فيه جسدك. بقيت تحت الماء وحبست أنفاسي ثم حاولت أنْ أفتح فمي، لكنني خفت وجذفت بذراعي وأخفتُ الضفادع وجعلتها تصدر الكثير من النقيق.

في المرة الأولى، كنت عائدًا إلى المخيم في الظلام وكل أسلافي يصدرون الضجيج داخل رأسي، قدماي تتعثران بسبب الأشواك وتؤلمانني كثيرًا فلا أستطيع أن أمشي بشكل مستقيم. بقيت أتعثر وأتخبّط وأنا أحاول منع المصباح من السقوط كي لا يضربَني القائد؛ لأن المصباح باهظ الثمن. استغرقت وقتًا طويلًا حتى وصلت إلى حيث ينام ستريكا، وحين وصلت وجدته نائمًا على حصيرته. لم أتمكن من العثور على حصيرتي، لذا استلقيت على الأرض الإسمنتية بجانبه. ثم شعرت به وهو يعانقني بذراعيه رغم أنه لم يفتح عينيه كي أعرف أنه مستيقظ. لم أكن نائمًا، بل ظللت أراقبه طوال الليل وهو يتحرك ويمضّ إصبعه ويمسك عضوه ويضرب الهواء بيده. وحين جاء الصباح، بدأت أشعر بالتعب والنعاس أكثر من الألم في مؤخرتي ورأسي، فنمت. لا بدّ أنني نمت لفترة طويلة لأنني عندما استيقظتُ كان ستريكا قد رحل بالفعل تاركًا بعض الخربشات على الأرض بجانبي، يقول فيها: الربّ سوف يعاقبه.

لكنه لا يزال يفعل نفس الشيء معي، مرات ومرات ومرات، وبتُّ معتادًا على ذلك بطريقة أو بأخرى؛ رغم أنني أشعر في كل مرة بأنها المرة الأولى. يحبّ أن يهمس في أذني وكأنني امرأة، وفي هذه المرة، حين ينتهي، يمرّر يده على ظهري للأعلى والأسفل ليمسح العرق، ثم يفرك رأسي كأنني طفل صغير. حين ننتهي يكون في غاية الهدوء لدرجة أنني أستطيع سماعه وهو ينظّف نفسه بمنديله ثم يجلس على السرير.

حين انتهى هذه المرة، كان ضوء النار الداخل من خلال الناموسية لا يزال واضحًا. يجلس القائد على حافة السرير ويداه بين ساقيه. يتأرجح للأمام والخلف وأحاول معرفة ما يفكر فيه. أضغط بيدي على مؤخرتي كي يتوقف الألم. وأضع رأسي على وسادته التي تفوح منها رائحة العرق وتبرز منها شظايا صغيرة لأعواد المضغ. هذا السرير لا يقوى على حملنا معًا، ويصدر صريرًا مع كل نفس يأخذه. أحرّك لساني إلى الخلف لأنني أخشى أن أعضّه لتخفيف الألم. يأخذ نفسًا عميقًا ويبتلع كل الظلال الموجودة في الغرفة كما لو كانت طعامًا.

آغو، يقول. لكنه متعب جدًا لدرجة أن كلمته تتعثر عِوضَ أن يفلتَها لسانه. هل تريد أن تعرف شيئًا؟ دعني أخبرك شيئًا!

لا أريد أن أعرف أي شيءٍ يقوله لي. لا أريد أن أسمع صوته رغم أنه يبدو مثل سكين كلَّ من شدة التعب. لا أريد أن أسمع تنفسه أو أن أشمّ رائحة الغضب والقلق في أنفاسه. كلُّ هذا يجعلني أرغب في أن آخذ النار الموجودة في الخارج وأبتلعها كي تحرق أحشائي وتجعلني مثل قنبلة فارغة. لكنني أقول: نعم! نعم سيدي! يضع يده خلف رأسي وأبتلع ريقي بصعوبة. تكبر البصقة في فمي ويسيل لعابي على الوسادة. ينظر إلى ظهري وأشعر بعينيه تجولان في أنحاء جسدي العاري. أستطيع أن أشعر بنظراته تزحف على جلدي مثل نمل كثير يتحرك ببطء شديد على الأرض يقضمُ العالمَ قِطعًا صغيرة عبر ملايين العضّات الصغيرة. أستدير وأنظر إليه من زاوية عيني. رغم أن الضوءَ خافتٌ جدًا في الغرفة أرى عينيه حمراوينِ، ويبدو لي كشيطان. الضوءِ الخافت يجعل أنفه أكثر حدّة وشفتيه تلمعان كثيرًا بسبب اللعاب من لسانه، لذلك يبدو وكأنه قد تناول وجبة شهية للغاية.

آغو. أنا لست رجلًا سيئًا، يقول بهدوء واضعًا يده على ظهري.

بدأت دموعي تتدحرج على وجهي وتختلط مع اللعاب على الوسادة. أريد أن أخبره أنني لا أستطيع القتال بعد الآن، وأن عقلي تعفّن مثل لب فاكهة. أعلم أنني إذا قلت شيئًا كهذا، سيصفعني كما يصفع الجنود الآخرين دائمًا – إلى أن تسقط أسنانهم الدامية في يده. أعضّ على الوسادة كي لا أُحدثَ ضجيجًا. أشعر بالشظية الخشبية تنغرز في سقف فمي ولساني. أريد أن أغادر.

يسحبُ القائد أصابعه إلى أسفل رقبتي ويجعلها تتراقص عند حدبة ظهري. أحسّ بأصابعه مثل قطرات كثيرة من الماء المغلي الحار، الحار. ثم يطبق يديه حول يديّ ويبعدهما عن مؤخرتي.

لا تقلق! يقولُ. كل شيءٍ سيكون على ما يرام.

قبل أن نغادر هذا المكان نهدم كل شيء. نهدم كل شيء. أحسّ ببرودة الصباح اللطيفة على جلدي. لو لم تكنْ هناك حربٌ وكنّا أشخاصًا عاديين، لا جنودًا، لقلنا مبتهجين: ما أجملَ هذا الصباح. ما أجمله والشمس لم تطلع بعدُ من بين الغيوم. نستيقظ جميعًا ونتجوّل، ونمدّد أذرعنا وأرجلنا، لكننا جائعون. لا نأكلُ شيئًا. الجميع هنا يخضع لنظام صفر صفر واحد. لم أكن أعرف معنى ذلك قبل أن أصير جنديًا، إنه يعني لا فطور ولا غداء، إنما عشاء فقط. وإذا كنت تريد تناول الطعام في غير وقت العشاء، فعليك أن تحتفظ بعشائك إلى اليوم التالي. أو إذا هاجمنا مزرعة أو عثرنا على واحدة، فيمكننا حينها أن نأكل.

نعرف ما يجب فعله عندما يحين وقت المغادرة. يوضع الطعام في شاحنة. الكيروسين والوقود في شاحنة أخرى، وعلى كل واحدٍ أن يحرص على وجود سكينه أو بندقيته بحوزته، لأنك إذا فرّطتَ بهذه البندقية أو بهذا السكين، فإن القائد سيفرّط بروحك أيضًا.

وهذا ما نفعله، نحمّل هذه الأشياء وتلك، وفي النهاية ننزع السقائف وتصير كومة من جذوع النخيل والأخشاب، وقبل أن نغادر المخيم، نحرق كل شيء. نحرق كل شيء. يقول القائد: أسرعوا، اهدموا كل شيء! جمّعوا الأكوام. لا نريد أن نترك لرجال الحكومة أي مكان مفيد يستخدمونه إذا جاؤوا إلى هذه المنطقة. يحضر الجنود جركن الكيروسين ويسكبون منه فوقَ جذوع النخيل المتراكمة على الأرض كجثث ميتة، ثم يقترب القائد مني ومعه علبة ثقاب، ويقول لي: عليك أن تشعل النار. يظن القائد أنه يمنحني شرفًا كبيرًا حين يجعلني أشعل النار، لكنني أعرف أنه لم يسمح لي بذلك إلا لأنني أداعبُ جنديّه. أحبّ إشعال النيران كثيرًا لكن ذلك لا يجعلني أحبّ ما فعله بي في الليلة الماضية. كل الأشياء التي يعطيني إياها لا تجعلني أحبُّ ذلك الأمر، لكنني لا أقول ذلك لأنه سيضربني.

آخذ العلبة من القائد، وأقدح الأعواد جيدًا جيدًا حتى أسمع شششوو وأرى النار مشتعلة في نهاية الأعواد. الرائحة تدخل أنفي وتثير عطاسي. أمسك الأعواد، أمسك الأعواد إلى أن تلتهمها النار ثم أرميها هكذا فوق الأكوام. ينفجر المكان بلهبٍ كبيرٍ

ولكن ليس هناك بووووم! كما في الغارات وانفجارات القنابل. الجو حارّ جدًا والنار تتصاعد بسرعة بسرعة حتى يحترق كلّ... كلّ شيء. لون اللهب كلون غروب الشمس، كلّ شيء برتقاليّ، ولكن كل ما يلمسه اللهب يصبح لونه أسود بسرعة، ولا يبقى شيء جميل يسرّ الأنظار. لا أحبّ أن أرى اللون البرتقالي يتحوّل إلى دخان أسودَ يتطاير في كل مكان، والذي سترى -إذا ما نظرتَ من خلاله- كيف يجعل كلّ شيء يتحرك ذهابًا وإيابًا، رغم أنّ كل شيء ساكنٌ.

نشاهد جميعًا ذلك لقليلٍ من الوقت، ونستنشق رائحة الدخان المتصاعد عاليًا، عاليًا، إلى السماء. أرى كل الجنودَ الآخرين من حولنا وهم يحدّقون في النار التي تنمو أكثرَ فأكثر حتى يصبح الجو ساخنًا للغاية، ونحن لا نريد الانتظار أكثر لأن الدخان بات يدخل إلى صدورنا ويجعلنا نسعل، ويدخل إلى أعيننا ويجعلنا نبكي.

نصطفُّ في الرتل، وأنا بجانب ستريكا أنتظرُ أن آخذ مكاني في الشاحنة وأرى كل الجنود الآخرين يصعدون بسرعة وبسبب الوزن الثقيل تئنّ الشاحنة مثل حيوان جريح. ننتظر، وقبل أن نركب، يأتي القائد ونلقي عليه التحية. يقول لنا: لا. لا. أنتما الاثنان ستكونان حارسيّ الشخصيين. ستركبان معي في سيارتي.

ثمّة عدد كبير من الأشخاص سيجلسون على المقعد في شاحنة القائد، لكننا نلتصق بعضُنا ببعضٍ. السائق خلف العجلة. أنا بجانب السائق، وستريكا بجانبي، والقائد يجلس بجانب الباب الآخر. الجلوس داخل سيارة القائد أفضل بكثير من أي مكان آخر. المقعد ليس من الخشب، بل مبطّن ومريح لمؤخرتك. يوجد زرّ لفتح النافذة، ويمكنك تشغيل الراديو أثناء القيادة والاستماع إلى الموسيقى. يشغلّه السائق ونحرّك رؤوسنا للأعلى والأسفل مثل السحالي وننقر بأصابعنا مع الأغنية.

أنظرُ من خلال النافذة أيضًا، وأرى كيف تمرّ الأشياء بجواري بسرعة شديدة، ووشش هناك شجرة، ووشش هناك حصان، ووشش هناك شخص، وأفكّر بأن كل شيء يتحرك بسرعة لدرجة أنني سأصبح رجلًا كبير السن قبل أن تنتهي الحرب. أعرف أنني لم أعد طفلًا، وحين تنتهي الحرب، فلن أتمكن من القيام مجددًا بالأشياء التي يقوم بها الأطفال. لا. سأكون معلمًا أو مزارعًا أو طبيبًا أو مهندسًا، وسأعثر على

أمي وأختي، لكنني لن أجدَ أبي لأنه مات في الحرب.

أفكاري كهذا الطريق، تستمرّ بلا توقف، تستمرّ بلا توقف، إلى أن تأخذني بعيدًا، بعيدًا عن هذا المكان. أحيانًا، أفكّر في حياتي بعد فترة طويلة من الآن، وأحيانًا أفكّر في الحياة التي تركتها ورائي. ومن ثم أنظر إلى القائد وستريكا وأفكر بيني وبين نفسي بأنهما يبدوان قويين وجميلين، كما كنا نبدو قبل الحرب، كما سنبدو بعد الحرب، ولكن ليس كما نبدو الآن. نبدو الآنَ كحيوانات ليس إلا.

نركب نركب، ونمشي نمشي، ونركب نركب، ونمشي نمشي، ونقاتل ونحارب ونهرب من الطرقات إلى الأدغال؛ ومن الأدغال إلى الطرقات. هذا كل ما نفعله. هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله إلى أن نصل يومًا ما إلى مدينة. يقول القائد إنها مدينته لأنه عاش فيها حين كان جنديًا قبل بدء الحرب. أرى لافتة تقول: أهلًا بكم في مدينة الموارد الوفيرة. أستطيع أن أقرأ لذلك أعرف ماذا تعني «أهلًا بكم!». أعرف ماذا تعني مدينة. وأعرف ما هي الموارد الوفيرة. لكنني ما زلت أريد أن أفهم ما تعنيه هذه اللافتة بالنسبة لنا. أريد أن أسأل أحدًا ما لكنني لا أقول شيئًا. لا تخرج أيّة كلمة من فمي.

بينما نقف على هذا الطريق، أرى النسمات وأحسّ بالعشب. أعرف أنني أخلط الأشياء لكنني تعلمت أن أبقي فمي مغلقًا. لا أقول شيئًا ولكنني أفكر دائمًا بأنه لا يوجد شيء سهل. لم أعد سعيدًا. لن أكون سعيدًا مرة أخرى.

حدّثني القائد، قبل أن نصل إلى هنا، عن مدى جمال مدينته مقارنة بباقي المدن، وأنها تشبه الجنة التي يتحدثون عنها كثيرًا في الإنجيل. في هذا المكان، يقول، في هذا المكان، آهٍ! كل شيء جميل جدًا. إذا نظرت من أعلى التلة سترى أسطح المنازل بألوانها المختلفة، الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر والبرتقالي، لذا فإن المكان بأسره يبدو كحقل أزهار يمتد على طول الطريق إلى النهر الذي يتلألأ بشدة. آه، النهر يتلألأ عند طرف المدينة، ويلمع مثل قطعة كبيرة من الصفيح ملقاة على الأرض. يقول: لطالما قال الناس إنه في هذا المكان، ربّما ذات يوم، سيحطّ طائر كبير ويأخذ النهر لأنه سيظنّ أنه قطعة صفيح لا مياه. أوه! أوه! يا آغو، الكهرباء موجودة هنا في كل وقت، ويوجد ماء والكثير من الطعام كالدجاج والبقر والماعز والخضراوات والفواكه، أي نوع تريده من الفواكه لأن التجار دائمًا يجلبون كل ما بحوزتهم إلى هذا المكان للبيع. يبيعون كل شيء هنا. إذا أردتَ ملابس جميلة، فستجد هذه الملابس. إذا أردت خشبًا جيدًا، فستجد هذا الخشب، وستجد المجوهرات – الذهب والفضة. يوجد كلّ شيء هنا. لدينا كلّ هذه الأشياء. لكن ليس هذا ما أحبّه حقًا.

يقول: أفضل ما في هذه المدينة هو النساء. آه، النساء في هذا المكان جميلات

جدًا. حين ترى امرأة هنا، حتى قبل أن تعرف من هي، يقف جنديك فجأةً ويصبح قاسيًا. لديهن أثداء كبيرة كالوسائدِ، وناعمة جدًا ومدوّرة لدرجة أن حتى ملابسهن تفرح كثيرًا بحملها. ولديهن مؤخرات مدوّرة وجميلة جدًا لدرجة أن الكراسي أيضًا تفرح كثيرًا حين يجلسن عليها. يعرفن كيف يرضين الرجال بقبلاتهن ومداعباتهن. يقول: يا إلهي! آخر مرة كنت هنا، آه! نمت في يوم واحد مع أربع نساء إلى أن صار جنديي يؤلمني كثيرًا حين أتبول.

لا يمكنك أن تتخيل مدى جمال هذا المكان. مكان رائع، يقول. وأنا أنظر إليه بعينين مفتوحتين على وسعهما، فيقول لي: لماذا تنظر إلي بهاتين العينين؟ هاه؟ أتظنّ أنني أكذب؟ آغو، أتظنّ أنني أكذب؟ هاه؟

سأخبرك كيف جاءت هذه المدينة إلى هذا المكان، يقول. منذ زمن بعيد بعيد، ليس بعيدًا جدًا لدرجة أنه لم يكن هناك بشر، بل قبل أن يعرف الإنسان السفر من قريةٍ إلى أخرى، كان ثمّة تاجر يبيع الملابس في قريته. كان رجلًا جشعًا لا يفكّر إلا بكسب المال، ولذلك كان كل الناس في قريته فقراء للغاية، وهو الغنيّ الوحيد الذي يمتلك أكبر قطعة أرض، أكبر كمية من اليام، وأكبر عدد من الزوجات والأطفال – حتى أكثر من الزعيم.

وفي أحد الأيام، حلّ قحط صغير في القرية كلها، لم يكن كبيرًا جدًا لكنه كبير لدرجة أن الناس جاعوا كثيرًا، ولم تقدّم لهم الأرض شيئًا لأنها هي الأخرى كانت جائعة أيضًا. فذهب كل أفراد القرية إلى بائع الملابس الغنيّ، يرتدون خرقهم البنية فوق جلودهم المُتيبّسة على أجسادهم. سألوه بصوتٍ واحدٍ وعالٍ، لكنه كان ضعيفًا رغم كثرتهم: نرجوك يا بابا. أعطنا الطعام الذي تخزّنه لأننا جائعون جدًا وأنت غنيّ جدًا. تعرّق بائع الملابس وراح ينظر إلى مخازنه ثم إلى كلّ سكان القرية وقال: لماذا تطلبون مني أن أعطيكم اليام؟ هل ساعدتموني أنا وعائلتي حين كنا نحصد؟ همهم سكان القرية وتذمروا فيما بينهم لأنّ هذا التاجر ما كان ليصبح غنيًا وقادرًا على زراعة الكثير من اليام لولا أموالهم. غضب كل سكان القرية على بائع الملابس صارخينَ بأنه لا قلب له، وهجموا عليه وعلى عائلته حتى هرب –فقد كان جبانًا

أيضًا- تاركًا عائلته في مواجهة الناس الغاضبين والمطالبين بالطعام.

وسافر، سافر، سافر بين الأدغال، ينظر إلى اليمين واليسار، ويمشي لأيام عديدة، أيام كثيرة جدًا. لا طعام. ولا ماء. تمزقت ملابسه فِي الأدغال وتجرحت قدماه من الجذور والصخور على الطريق حتى عثر يومًا على عجوز متمددة على جانب الطريق. كانت العجوز بعين واحدة وبلا أسنان، لذا لن تسمع جيدًا ما تقوله في أغلب الأحيان. لاحظ بائع الملابس أنها تفوحُ بروائح الطعام، لذا اقترب منها وقال: سيدتي، أرجوكِ يا سيدتي، ساعديني! أنا بائع صغير غادر قريته للتجارة، لكن اللصوص على الطريق هجموا علي والآن لا أملك شيئًا، ولا حتى قطرة ماء أشربها. كانت المرأة التي تحدّث إليها ساحرة؛ أجابته: لا تقلق! إذا ساعدتني فسأعطيك ما تريد. في العادة، لم يكن هذا الرجل يقدم المساعدة لأحد، بل كان يساعد نفسه فحسب، لكن هذه المرة، ولأنه جائع جدًا، استمعَ لها جيدًا جيدًا.

قالت الساحرة: أنا عجوز ولا أقوى على مغادرة مكاني هذا، تحت هذه الشجرة الجميلة، لكن بيتي ليس بعيدًا عن هنا. اذهب إلى هناك وأحضر لي حساء اليام الذي أعددتُه، ولكن لا تأكل أي شيء حتى تعود إلى هنا. اتّبع البائع تعليماتها ووجد كوخ الساحرة وسط الأدغال. كانت رائحته كريهة للغاية والقمامة تحيط به في كل مكان وكان طين الكوخ بأكمله يتساقط على الأرض لأنها لا تملك سوى ساق واحدة ولا تستطيع إصلاحه؛ كما ينبغي أن تفعل طوال الوقت مع الأكواخ الطينية. كان أيضًا يشمّ رائحة حساء اليام، لذا دخل ووجد في وسط الكوخ قدرًا كبيرًا منه على النار. في هذه الأثناء، كان جائعًا للغاية فجلس وتناول بعض الطعام وحده. وحين انتهى، أحسّ بامتلاء شديد فوضع رأسه على الأرض ونام.

حين استيقظ، لاحظ أنه لم يتبق الكثير من حساء اليام، فشعر بإحراج كبير وحمل الوعاء عن النار وأسرع إلى الساحرة وهو يفكّر: أوه يا إلهي! ماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ حين وصل إلى المكان الذي ترك عنده الساحرة، قال لها قبل أن يترك لها فرصة للكلام: أرجوك يا سيدتي. أنا آسف جدًا لقد سقط مني الوعاء على الأرض، ولهذا السبب لم يتبق منه إلا القليل القليل. أرجوك سامحيني لأنني

لم أقصد أن أسبب لكِ أي ضرر. نظرت الساحرة إليه وقالت: هل أكلت جيدًا؟ فقال: أجل، جيد جدًا. الطعام لذيذ جدًا، قبل أن يدرك ما يقوله. ثم نظرت إليه وقالت: آه آه يا لك من كذّاب. أنت تعلم أنني ساحرة وراقبتُك بعيني الوحيدة التي تركتها في الكوخ. وراحت تصرخ على الرجل. لكن بائع الملابس قال للساحرة: كنت مسافرًا لعدة أيام وكنت جائعًا ومتعبًا جدًا. أرجوكِ. أرجوكِ. أرجوكِ. قالت الساحرة: لا بأس ما دمت ساعدتني كي آكل بعض الطعام. أشعر بالأسف من أجلك، لذا سأحقق لك أمنية واحدة قبل أن تغادر. ما هو أكثر شيء تريده في العالم؟

فكّر بائع الملابس، وسأل لعابه حين سمع ما تقوله هذه المرأة. كان يتساءل: كيف لها، كيف لها أن تسألني عن شيء كهذا؟ ثم قال لها: هل سأحصل على أيّ شيء أريده في هذا العالم؟ أي شيء؟ وقالت: نعم، أي شيء. ثم تذكّر الرجل كل الأشياء الجميلة التي تركها في قريته. كل الملابس الجميلة والأطعمة اللذيذة والأسرة الجيدة والأشياء الأخرى، وقال لها: أرجوكِ يا سيدتي. إن كان بإمكاني الحصول على أي شيء، فأنا أريد كل ثروات هذا العالم. غضبت الساحرة وقالت: يا لك من أحمق. رجل غبيّ. لا تفكّر إلا بما تريد. غضبت كثيرًا لدرجة أنها نهضت وقفزت على قدم واحدة وصرخت: امضِ في طريقك! عمّا قريبٍ ستصادف نهرًا. استلقِ بجواره ونمْ! وحين تستيقظ ستجد كل ما تمنيته.

لم ينبس بكلمة للساحرة. هرعَ إلى الأدغال وسرعان ما صادف ضفة نهر كبير يتألّق كالفضة تحت الشمس. ركع وضحك في نفسه لأنه كان على وشك الحصول على كل ثروات العالم. ثم وجد حجرًا توسّده، ورغم أنه كان في غاية السعادة لكنه أسند رأسه على الحجر، وأخيرًا، بعد مرور بعض الوقت، غطّ في النوم.

لم يستيقظ بعدها بائع الملابس. وبدلًا من ذلك، أصبح السوق الذي يحتوي على كل ما يريده أي شخص. ولهذا السبب، إذا نظرت إلى هذه المدينة من الأعلى، سترى أنها تبدو مثل رجلٍ مستلقٍ بجوار النهر. ولهذا السبب يقولون إنه لا ينبغي لك أن تثق بأي شخص أو بأي شيء في هذه المدينة. إنه السوق. السوق الذي يحتوي كل شيء، ولكن كل الأشياء هنا ليست أبدًا كما تبدو عليه.

يخبرني القائد بكلّ هذا وأتوقّف عن فتح عينيّ على اتّساعهما. أنظر هنا وهناك، وأرى مدى حماسة الجنود. يتحدثون عن كل الأطعمة والمشروبات والنساء التي سيجدونها في هذا المكان. وبينما كنا نهبط التلة باتجاه المدينة، رأيتُ السوقَ تمتد إلى اللانهاية وتبتلع كل المنازل والمباني في هذه المدينة. الشوارع، حيثما كنا، طافحة بالقمامة التي تراكمت على طول الطريق فوّاحةً برائحة الجثث المتعفنة. أرى أرجلَ ورؤوسَ حيوانات، وهذا يجعلني أتقيأ رغم أنني رأيت جثث بشر ميتين من قبلُ، لا جثث حيوانات فقط. هذا الحيوان المتمزق في الطريق يجعل معدتي تنقلب رأسًا على عقب. أينما نذهب لا نجد سوى القمامة والحيوانات النافقة والموتى في كل مكان. البيوتُ، التي بدت جميلة من بعيد، ليست جميلةً عن قُربٍ، أبدًا. بدتْ مثل عجائز على وشك أن يسقطنَ. ثقوب الرصاص في كل مكان، كأنّ الرصاصَ جرادٌ يضع أعشاشه في كل الأنحاء، حتى في الإسمنت. أرى الآن حُفرًا صغيرة هناك وهناك. أحيانًا، نمرّ ونحن في الشاحنة ببيوتٍ وبيوتٍ وبيوتٍ إلى أن تختفي البيوت، وهنا تبدو الأرض كأنّ أحدًا ضغط عليها بإبهامه، لكنّه إبهام عملاق. في هذه الأماكن، ترى أحيانًا كل الأشياء تلمع بسبب الزجاج المكسور، وأحيانًا تشمّ الدخان المنبعث من الركام. ألتفت حولي لأرى ما إذا كان هناك أحدٌ غيري ينظر إلى هذه الأشياء، لكنني الوحيد الذي ينظر ويفكّر: يا إلهي! هذا في غاية السوء. إنهم لا يفكرون سوى بالنساء والمشروبات التي سيحصلون عليها حين نصل. ما زلتُ صغيرًا على معرفة هذه الأشياء، ولكنني ومن خلال ما سمعته من الرجال وهم يتحدثون عن النساء، أعرف أنني أريد حقًا أن أجعل جنديي سعيدًا. أريد واحدةً ولكن ليس بتلك الطريقة التي نحصل بها على النساء في أرض المعركة.

إن كانت هذه هي المدينة الكبيرة حيث يبيع التجار ويشترون هذه الأشياء وتلك، فإني لم أرَ ما له علاقة بذلك. السوق فارغةٌ. المكان بأكمله فارغ. الكثير من الأسقف متساقطة ومليئة بثقوب الرصاص لدرجة تجعلني أتساءل: كم شخصًا يموت هنا كل يوم؟ لا بد أن هناك الكثير، الكثير منهم، لأنه لا يوجد ما يكفي من الناس لدفن الذين ماتوا. إنهم يُلقونَ على نواصي الشوارع كالقمامة فحسب.

ننزل من الشاحنة ونتجول باحثين عن شيءٍ جيد. لا أعرف إن كان القائد قد

أخبرَ الجميع عن الأشياء التي يجب أن نجدها في هذا المكان. لا أعتقد ذلك لأنهم سيغضبون كثيرًا إن لم يعثروا على شيء منها. نتجوّل في السوق ولا نجد شيئًا. وحين نخرج منها، لا نجد شيئًا أيضًا.

أنظر يمينًا ويسارًا ويسارًا ويمينًا إلى كل المباني الموجودة على جانبي الطريق. لا وجود هنا لشيء مما قاله القائد، ولكنني بدأت ألاحظ أن مظاهر الحياة هنا باتت أكثر مما ظننته في البداية. أرى قطة نحيلة تلعق عظمة دجاج قديمة ومغبرة على الأرض. العظمة قاسية جدًا كالصخرة، ومن شأنها أن تكسر أسنان القطة، لكن القطة لا تلقي بالًا لأنها وجدت على الأقل شيئًا تأكله. نتجه جميعًا إلى الزاوية ونرى أخيرًا بعض الأشخاص يتجوّلون. يتصرف هؤلاء كأن الجنود ليسوا شيئًا جديدًا أو حقيقيًا بالنسبة لهم في هذا المكان بينما يخافنا الجميع في أماكن أخرى. أفكّر: ماذا لو أنهم لا يروننني؟ ماذا لو أنهم لا يروننا؟ ماذا لو أننا متنا وبتنا مجرّد أرواح؟ ماذا لو كانوا هم أرواحًا لأنهم جميعًا يبدون متشابهين؟ بدا جميع الناس متشابهين، ولست أميّز فيهم بين الكبير والصغير؛ أو بين الرجل والمرأة. أفكر في نفسي بأن هذا المكان، بما فيه من أشخاص، أربكني كثيرًا.

أسير وراء القائد والملازم ورامبو وستريكا. الجنود الآخرون يتبعونني. نتجه إلى شارع واسع بما يكفي لمرور شخص بجانب الآخر، وشاحنة بجانب الأخرى. على كل جانب هناك مبنى من طابقين أو ثلاثة، وبينما نمشي، تنظر إلينا بعض النساء من الأعلى وأرى أنهن لا يرتدين سوى قطعة قماش حول صدورهن. القائد والملازم ورامبو والجميع ينظرون من حولهم ويلعقون شفاههم كأن هذا هو أفضل ما رآه واحدهم على الإطلاق. كل المباني واقعة خلف جدران متداعية، لكن لكلٍّ منها بوّاب أو امرأة معها عصا، تجلس وتنظر إلينا ولا تبتسم. أسمع رجلًا يصرخ بصوت عالٍ: هيّا إذًا! لا تقلقن. لا تقلقن يا حبيباتي! لقد عدنا من أجلكن!

بعد المشي والقيادة لفترة من الوقت، يقول القائد: هنا! فنقف كلنا في مكان واحد. المكان الذي وصلنا إليه عبارة عن بيتٍ بلا حارس أو شخص يقف عند البوابة. نفتح البوابة الصدئة التي تصدر صريرًا عاليًا. خلف البوابة، ثمة أرض لم يدخلها أحد منذ

زمن بعيد بعيد. أعرف ذلك لأن العشب بات طويلًا جدًا. أتساءل عن سبب مجيء القائد بنا إلى هذا المكان، وإذا بي فجأة أرى بندقية، بندقية كبيرة، أكبر بندقية رأيتها في حياتي، كبيرة جدًا لدرجة أنها تحتوي مقعدًا يمكنك الجلوس عليه وأنت تطلق النار بها. وبجانبها رصاصة كبيرة بشكل مثلث، والرصاصة أكبر من ذراعي. البندقية ترتكز على عربة أكبر من جسدي بأكمله، وأريد أن أمد يدي وألمسها. كل هذه البنادق والرصاصات صدئة كأنها لم تستخدم منذ زمن بعيد. لم ير أحد منا شيئًا كهذا من قبل.

يصرخ القائد: انتباه، وأرى أن الجميع يقف منتبهًا هنا بسرعة كبيرة. ثم يقول القائد إننا يجب أن نحسن التصرف ونبقى يقظين ونرتاح جيدًا وسنعرف قريبًا ما يحدث. الجميع يستمع لكن لا أحد يفهم حقًا ما يقوله عن المضي قُدمًا ومحاربة العدو في هذا المكان أو ذاك لأنني لم أرَ هذا المكان أو ذاك في حياتي. على أية حال، هذا لا يهم كثيرًا لأنني أطيع الأوامر فحسب وليس عليّ فعلُ شيءٍ آخر. بعد أن يصرخ بنا هكذا، يأمرنا بالانصراف وبناء المخيم.

يتحرك الجنود ذهابًا وإيابًا كي يروا ماذا يوجد في هذا المكان من أشياء لم يروها من قبل. أرغب في الذهاب خصيصًا إلى تلك البنادق الكبيرة، وأرى ما إذا كنتُ قادرًا على الجلوس فيها والتصويب نحو السماء وإطلاق النار، لكن القائد يأمرنا أنا وستريكا باتباعه. نسير خلفه فيتجه إلى أحد البيوت، البيت الوحيد الذي بقي في هذه الأرض.

نفتح باب البيت ونجد غرفة تضيئها الشمس، وبها الكثير من النوافذ، لكنها كلها بلا زجاج. أعرف على الفور أن هذا المكان كان مدرسة لأنني أرى مقاعد وطاولات وسبورة، ولكن هناك العديد من الجدران التي عليها دبابيش خُضرٌ وصُفرٌ وزُرقٌ وبيضٌ، منتشرة في كل مكان. تغطي هذه الخرائط كل جزء من الجدران والطاولات وأحيانًا تغطي الأرض. أحسُّ برأسي يدور لهذه الجهة وتلك لأنني أشعر بأنني داخل العالم، وأرى كيف ينبغي لكل شيءٍ أن يبدو من الداخل بدلًا من الخارج. إنها ليست خرائط للعالم، بل خرائط بلدي، ولهذا السبب توجد في كل مكان أسماء مناطق كنت

أسمع أحيانًا أن القتال يدور فيها، أو أن العدو احتلّها اليوم وفي اليوم التالي لم يعد بها أعداء، لكنني لم أكن أعرف أن الحرب موجودة في كل مكان. أنظر إلى هذا الدبوس وذاك، وأفكر: إذا أردتُ الهربَ فإلى أين؟ إلىّ أينَ أهرب؟ الحرب في كل مكان. قلبي يخفق بسرعة وأنا أتعرق كثيرًا. أريد أن أجلس.

فجأةً، أقف في هذه الغرفة، ولكن في الوقت نفسه أقف في صفي، في الظل، في الزاوية التي نعاقب فيها حين نثرثر كثيرًا أو حين لا نؤدي واجباتنا المدرسية بشكل صحيح. أرى كل الوجوه وأتعرّف فورًا على كل الذين يجلسون هنا ويؤدون واجباتهم، ثم أنظر إلى المرأة التي تكتب على السبورة. تخطو كأنها تعرج، لكن جسدها يشبه السيدة غلوريا. تكتب: لن أقتلَ، لن أقتلَ. لن أقتلَ، ويدوّنها الجميعُ في دفاترهم، لن أقتلَ، لن أقتلَ، باستثنائي لأني لا أملك دفترًا. ثم تلتفت المعلمة نحوي، وتنظر إليّ فأخافُ؛ لأنّ وجهها يشبه وجهَ المرأة التي قتلتُها وكانت الدماء تلطخ وجهها وعينيها. تقول لي: ألم تفهم درسَنا؟ وهي تسير نحوي حاملة الماشيتي الحاد الذي يلمع كما تلمع مياه النهر. حين تقترب مني، أرى أن كل الأطفال في الغرفة لهم الوجه نفسه، وجه الفتاة التي فظّعوا بها ثم قتلها ستريكا. أرغب في الصراخ.

آغو!

أسمع اسمي، ثم يعود المكان مليئًا بالخرائط وأنا واقف داخل العالم، أنظر إلى القائد وهو ينظر إلي. أقول: نعم سيدي! نعم سيدي! أصيح واقفًا باستعداد وأحاول أن أبدو فخورًا وقويًا.

يقول لي: ماذا حدث لك؟ ماذا حدث لك؟ لكنني لا أجيب. فمي مغلق. ثم يقول: تعال. فلنغادر هذا المكان.

يحلّ الظلام في الخارج، لكن الجنود يصدرون الكثير من الضجيج لأنهم يعدّون الطعام. كل واحد يتحدث مع الذي بجانبه، يتحدثون ويتحدثون. أستمع إليهم لكنني أفكر أيضًا في كل تلك الخرائط وفي كل القتال الذي يدور في العالم بأسره وهذا ما يجعلني أخشى على حياتي. أفكّر فيما إذا كان هناك طريق يجعلني أخرج من كل هذا.

حين يخيم الظلام لا نشعل ولا حتى عود ثقاب كي لا يعثر الأعداء على موقعنا ويرسلوا المروحيات والطائرات لتقصفنا. كل شيء أسودُ، لكنك تسمع أصوات الكلام أو الغناء كأنّها صادرة عن أرواح في الليل. أينما ذهبت تسمعهم يتحدثون عن قصة مختلفة أو يغنون أغنية مختلفة. لم نعد نشبه الجيش الآن، بل أظن أننا نشبه المدرسة أو العائلة. كل واحد يجد صديقه العزيز ويذهب إلى هذه الزاوية أو تلك. أتجول باحثًا عن ستريكا، لكن خطواتي بطيئة جدًا ومع كل خطوة عليّ أن أضع يدي أمامي كي أتبيَّنَ طريقي. هذا الظلام واسع جدًا كأنه حضن أمّي. ياه! أتذكّر أمي وكم كانت حنونًا معي. حين كانت تعانقني لم أكن أريد سوى رؤية ذراعها الداكنة التي تضمني قريبًا إليها وتجعلني أدرك أن حياتي التي أعيشها جميلة جدًا. هذا النوع من الظلام يجعلني أشعر بأنني انقلبت رأسًا على عقب، فتطفو أفكاري خارج رأسي بينما الملابس أصبحت بداخلي. أمشي ويداي ممدّدتان أمامي لأنني أحاول أن أمسك بكل هذه الأفكار التي تطفو من حولي حتى أتأكد من أنني لم أفقد جزءًا مني.

أمشي في الاتجاه الذي أتذكر أن المبنى كان فيه. وبينما أنا كذلك، أسمع صوتًا قادمًا من قَبل الحرب، آنَ كنت في المدرسة، صوت ضحكات وصوت بكاء وصوت ألعاب كنا نلعبها خلال الاستراحة. أسمع صوت أقلام الرصاص على الورق وصوت الطباشير على السبورة وصوت الممحاة حين نضربها بالحجر لنزيل عنها الغبار. أسمع كيف كانت الفتيات يمزقن الأوراق كي يتناقلن الإجابات بين بعضهن البعض وكيف كان الفتيان يتهامسون بهذه الإجابة وتلك من أجل التفوق على كل الفتيات. أسمع صوت السحلية التي تراقبنا على الجدار وصوت البعوض يدخل الصف ويجعل من الصعب علينا سماع ما تقوله المعلمة. أسمع صوت دايك يمضغ العلكة أو يلعق الحلوى، في الوقت الذي لا يُسمح فيه لنا بأكل أي شيء. أسمع صوت صندلي ينقر على الأرض أثناء حل تمارين الرياضيات، إلى أن تخبرنا السيدة غلوريا بأن الدرس انتهى وحان وقت العودة إلى البيوت. أسمع صوت الصلاة التي نتلوها كل يوم عند نهاية الدروس، ساعدني أيها الرب في استخدام ما تعلّمتُه من أجل خير الجميع عندما أعود إلى البيت. أسمع كل هذه الأشياء وأشعر بالحزن.

حين أصل، أجد القائد يدخّن سيجارة عند عتبة المبنى. يحدق في السماء وحيدًا. في كل مرة يدخّن فيها يحرص على إبقاء السيجارة في الأسفل كي لا يتمكن أي أحد من رؤية الضوء. أتمنى ألا يراني وألا يقول لي شيئًا رغم أني قريب جدًا منه، لكنه، مثل حيوان يدرك أن ثمة شيء حوله حتى لو لم يره، سرعان ما يصرخ قائلًا: آغو! آغو! ماذا تفعل! تعال إليّ بسرعة. وحين أقترب يقول لي بهدوء بهدوء: اجلس، اجلس! لذا أجلس ولكن يبدو كما لو أنه لا يرى أنني أجلس بجانبه، لأن الظلام بيننا كبير جدًا. أستنشق الدخان الصادر عن سيجارته، وأتمنّى لو أنني لم أبادل بسيجارتي تلك البسكويتة الصغيرة لأنني ما زلت جائعًا جدًا. بعدما أنهى سيجارته واختفى بصيصُ النار، ولم يعد وجهه مضاءً بوهج برتقاليّ، يضع يده على رأسي، يفرك راحة يده الخشنة على رقبتي. أتخيّله يقول لي: أحيانًا يا آغو أشعر بالأسف عليك. أنظر إليه لكنني لا أتمكن من رؤية أي شيء في وجهه لأن الظلام دامسٌ. لكنه لا يقول: أحيانًا يا آغو أشعر بالأسف عليك. أتمنى لو أنه يقول شيئًا كهذا، لكنه لا يفعل ذلك أبدًا. يقتربُ منيَ فأبتعد عنه ببطءٍ ونحن على شرفة مبنى المدرسة، إلى أن ينادي الملازم: سيدي القائد. هل هذا أنت؟ وهل هذا آغو؟ يقول القائد: فلنذهب. هممم. ما دمت حارسي الشخصي، فحين أذهب يتعيّن عليك أيضًا أن تذهب. أليس كذلك؟

يقول القائد إننا سنخرج هذه الليلة. يقول لكل الجنود: نصفكم سيأتي معي، هيّا، ثم يقسمنا إلى مجموعتين. يقول للمجموعة الأخرى: عليكم أن تبقوا هنا. وحين يتذمّرون، يقول: لا تقلقوا. هناك الكثير من النساء وسيبقى ما يكفي منهنّ حتى الغد. استريحوا، هاه! أسير بجانب القائد والملازم وهما يتحدثان عن الشراب والمال والنساء، يتحدثان ويتحدثان عن لذة هذه الأشياء. نسير ببطء شديد على الطريق لأننا لا نستطيع تشغيل أي ضوء. أشمّ من حولي رائحة جوع الرجال، كأنهم على وشك أن يلتهموا شيئًا شديد الحلاوة. ورغم أنني أكلت الكثير من الطعام هذه الليلة، لكن معدتي تجوع وتجوع كثيرًا كلما مررنا بمنعطف في طريقنا. لا سبيل لمعرفة إلى أين نحن ذاهبون على الإطلاق. ليس ثمّة بيوت بها ضوء شمعة أو مصباح، والمكان بأسره يشبه مدينة موتى.

نتوقّف وراء جدار إسمنتي، جدار يحيط بفِناء مبنى. يخبط القائد بقدميه الأرضَ

ويبصق بين حذائيه، ويشتم. هناك امرأة عند البوابة جالسة على مقعد ورأسها بين يديها، وعند قدميها كلب يتبرّم كلما اقتربنا. سرعان ما تشعل المصباح وتوجهه إلى أعيننا وتقول: لقد أتيتم إذًا، هاه؟ أحد الرجال يردّ: لماذا أختنا غاضبة؟ ثم تنظر إليّ وتقول: الأطفال لا يدخلون هذا المكان. أيتها المرأة الغبية، بدأتْ أسبُّها، لكن القائد يصفعني على رأسي ويقول: هذا حارسي الشخصي. تومئ وتبصق باتجاهي، وتنزل بصقتها بجانب قدميّ، من دون أن تلمسهما. فليباركك الشيطان، تقول، لكنني أواصل المشي.

في الداخل، كان الفناء أصغر من ذلك المكان الذي خيّمنا فيه، لكن يوجد بيت كبير. أسمع صوت مولّد في الفناء، لكني لا أرى أيّ ضوء. ندخل إلى غرفة بها أضواء زُرق في كلّ مكان. كل الطاولات والكراسي والأشياء تبدو بلون أزرق، حتى جلدي وجلد القائد يبدوانِ بلون أزرق وأسودَ كما لو أننا قد متنا. تأتي إلينا امرأة تلمع عيناها كالألماس الأزرقِ. تعرج في مشيتها وحين تخطو ذهابًا وإيابًا يصدر خفُّها صوتَ صفعات كأنها تضرب الأرض بقدميها تعبيرًا عن غضبها. مع كل خطوة من خطواتها، تقفز الذبابات عن الطاولة والكؤوس والمشروبات الموجودة في كل مكان والتي تجعل المكان يفوح برائحة البيرة والكحول. وفي زاوية الغرفة كومة كبيرة من الخبز، رغيف فوق آخر وصولًا إلى السقف مثل الطوب، وأشم رائحة اللحم المشوي والحساء اللذيذ. على السقف أعلام معلّقة لأنواع من البيرة والمشروبات الغازية كما لو أنها دول يجب على الجميع زيارتها. هذه الأعلام لا ترفرف كما تفعل الأعلام في العادة، بل تتدلى كأنها لا ترغب أصلًا في أن تكون معلقة حتى على جدار. كل النوافذ مغطاة بألواح ثقيلة وقماش أسودَ سميكٍ كي لا تمرر أي ضوء، لكن المكان حارٌّ جدًا؛ لأن النوافذ كلها مغلقة. تمتلئ الغرفة بنا ونحن ننظر من حولنا فحسب. أسمع صوتًا كصوت البعوض حين أرفع رأسي وأرى التلفاز. تلفاز! في الحرب! هل يمكنك أن تتخيل؟ لا يصدر عنه أي صوت، وهناك فيلم يُعرض عليه. أحاول أن أسمع ما يقولونه، لكني لا أرى سوى ضابط شرطة وامرأة تبدو كالعاهرات يتبادلان الصراخ على الشاشة. تلفاز كامل! لم أرَ شيئًا كهذا منذ بدء الحرب.

سيدتي، أحضري ما يرضي الجنود، يصيح القائد على المرأة ويضحك الرجال

الآخرون. أحضري البيرة! أحضري الصودا! أحضري كل شيء! يصيح القائد.

عندها فحسب أرى امرأة تبدو شابة جدًا، وجميلة جدًا، تجلس على مقعد في الجزء الخلفي من الغرفة. تصرخ السيدة عليها: قومي أيتها الحمقاء الكسولة، ألا ترين أن عندنا ضيوفًا، فتقوم المرأة الشابة وتذهب إلى البراد. تنحني فترتفع مؤخرتها عاليًا في الهواء. أرى القائد والرجال الآخرين ينظرون وينظرون إليها ولا يحركون أعينهم عن مؤخرتها كأنها قطعة لحم مطهية. ثم يضحكون فيما بينهم: هيهيي! هيهيي! كيهي كيهي كيهي. حين تستدير الفتاة أرى القماش الأبيض حول رأسها، والذي يبدو أزرقَ بسبب الضوء، وقد بلله العرق بأكمله. تتنفس بفم مفتوح كي تنفخ شفتاها في الهواء فقاعات صغيرة من اللعاب. كلّها ساخنة، تقول. لا يوجد ثلج لتبريدها. يغضب القائد: لا يوجد ثلج. كيف يمكن ذلك؟ هاه؟ الحرب لا تمنع أحدًا من صنع الثلج. أحضري المشروبات. سنشربها حتى لو كانت ساخنة، يقول القائد. وحين تأتي الفتاة يبدو كأنه شخص مختلف وعندما تقترب يمرر يده على كامل جسدها. عزيزتي عزيزتي، أنا أحبكِ، يقول وهو يلمس مؤخرتها. لا يعجبها ذلك. الرجال يضحكون ويضحكون، وينظرون إلى ثدييها الظاهرين بسبب كثرة العرق على قميصها. أنظر إلى ثدييها أيضًا وأشعر بأن جنديي يقف باستعداد، وهذا ما يجعلني أشعر بحالة جيدة وغير جيدة. يا سيّدة، أقول لهذه المرأة الشابة بينما هم يضحكون ويشربون مشروباتهم الساخنة، يا سيّدة، أحضري لنا بعض الخبز. تنظر إلي وهي تكزّ على أسنانها. هل جعلتك هذه الحرب تنسى كيف تحترم الكبار؟ انظروا لهذا الشيء الصغير الذي ولد بالأمس وهو يعطيني الأوامر. هاه! أيها الشيء الصغير. أنا أكبر من أمك! يضحك الرجال بصوتٍ عالٍ جدًا لدرجة تجعل الذباب يقفز في الضوء الأزرق، لكنها تذهب لإحضار الخبز وتعود به. وحين ترجع، يمسك القائد بثدييها فتصفعه على يديه لكن القائد والرجال ما زالوا يضحكون.

السيدة الكبيرة تراقب من زاويتها، وسرعان ما تغضب وتقول: إذا كنت تريد النساء، دع هذه وشأنها. لدي الكثير الكثير من النساء في الغرفة الخلفية ما دام لديك الكثير الكثير من النقود. وهكذا فجأة ينهضون جميعهم ويتبعون السيدة الكبيرة ويخرجون عبر الباب الخلفي للغرفة ويتركونني جالسًا هنا مع شرابي الساخن

والخبز الذي رمته إليّ الشابة. أنتظر. عشر دقائق. عشرون دقيقة. أحدّق في التلفاز وفيلم الشرطي والعاهرة. أمضغ الخبز وأراقب الشابة التي جاءت لأخذ الزجاجات عن الطاولة. أنظر إلى ثدييها وأرغب في لمس مؤخرتها مثلما فعل القائد، وحالما أرفع يدي لألمسها، تنظر إليّ كأنها سوف تضربني حتى الموت وتكزّ على أسنانها، لذا أخفض يدي. أشعر بحرّ شديد لأنه لا يوجد ولا نفحة هواء في هذه الغرفة، لذا أخرج كي أتنفس قليلًا.

حين أجلس خارجًا في الظلام، تحت النافذة، أسمع كل الضجيج الآتي من الداخل والذي يشبه ذلك الصوت الذي يصدر حين يدخل بي القائد. أسمع هذه الأشياء وهذا ما يجعل جنديي قاسيًا جدًا ولا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. ألمسه بلطف من فوق السروال القصير وأشعر بإحساس جميل، فألمسه أكثر كلما سمعت صوت الرجال والنساء داخل الغرف. تتحرك يدي للأعلى والأسفل، للأعلى والأسفل كأنها لم تعد جزءًا من جسدي، وأظل أتخيّل نفسي ألمس ساقًا أو ثديًا. كل هذا يجعلني عينيّ تغمضان وقلبي يخفق بسرعة وأنا مستمتع بكل هذا وأستمرّ بالقيام به حتى أسمع فجأة صرخة: آيييييييي!!!! لقد طعنتني أوه!

ثم أسمع صوت الخطوات الراكضة هنا وهناك في البيت، لذا أتوقف عن لمس جسدي وأركض إلى داخل الغرفة ذات الضوء الأزرق لأجد الجنودَ يخرجون من غرفهم وكأن شيئًا ما قد أربكهم. ثم أرى الملازم متكئًا على الجدار والدم يسيل من فمه لامعًا بلون أسود في الضوء الأزرق. أنظر إليه وأفكر في أنه مهما يكن ما حدث له فإنه يستحق ذلك، ثم أرى كيف أن وجهه يبدو وكأن الأشياء السيئة في العالم جعلته يشعر بألم كبير فأشعر بالأسف عليه قليلًا. ينهض كل الجنود نحوه ويمسكونه بعضهم من ذراع والبعض الآخر من الذراع الأخرى ويساعدونه للجلوس على كرسي. يخرج القائد من الباب الخلفي مرتديًا سرواله القصير، وجنديه ما زال واقفًا باستعداد، يصرخ: ما هذا الذي يحدث! ينظر الجميع إلى الملازم ثم ينظرون إلى المرأة التي تخرج من الغرفة بعده. جسدها ينزف ويبدو أن أحدهم قد ضربها على رأسها وعلى فمها. لا تستطيع أن تمشي أبدًا لذا تتكئ على الجدار وهي تحاول أن تتحرك، وتضع يدها الأخرى على عنقها. لا أحد يعرف ماذا يفعل، حتى تخرج السيدة

وتسأل عما يجري. ثم تخرج النساء الأخريات من غرفهن، بعضهن لا يرتدين سوى قطعة قماش ويحاولن بها تغطية أجسادهن، وأخريات يخرجن هكذا، عاريات، وكأنّ التجول بلا ثياب أمرٌ عادي.

ينظر الجنود إلى الملازم الذي يشير إلى بطنه. ماذا يجري؟ يسأل أحد الرجال. ثم يجعلون الملازم يستلقي على الطاولة تحت التلفاز كي يتمكن من أن يمدّد جسده. يا إلهي! يصرخ أحدهم. ماذا؟ يقول آخر فيما الجميع ينظرون إلى جسد الملازم. أذهب كي أرى ما بوسعي رؤيته وألاحظ عندها أن سكينًا مغروزًا في بطنه هكذا. أمسك ببطني كي أتأكد أن كل شيء لا يزال في مكانه. لم يعد الملازم يصرخ بعدها. إنه يرتجف ويرتجف على الطاولة ويغمغم مع نفسه مثل مجنونٍ.

يصرخ القائد: من الذي فعل ذلك؟ ثم تأتي السيدة وتقول: هيبي! ماذا يجري هنا؟ تنظر إلى فتاتها التي تنزف وتبكي وتمسك حلقها وتسعل: لقد أمسك برقبتي وضربني، ماذا يفترض بي أن أفعل حينها؟ لستُ إلا فتاة صغيرة. كيف لي أن أفلت من يديه؟ وحين رأيت السكين الموجودة في بنطاله أمسكتُها وطعنته بها كي يقوم عني. لم أعرف أن الأمر سيكون بهذا الشكل. أرى وجه القائد يصبح داكنًا وتفوح الغرفة برائحة الخوف والعرق. أعتقد أنه سيأمرنا بإمساك هذه المرأة ورميها بالرصاص، لكنه لا يفتح فمه حتى. إنه واقفٌ في مكانه وينظر إلينا من حوله ثم ينظر إلى الملازم الراقد والمرتجف على الطاولة. هيّا! انهضوا جميعكم! احملوه! فلنخرج من هنا، يقول وهو ينظر إلى السيدة الكبيرة التي تعضد الفتاة، وتمسح الدم عن وجهها بقماشة. كل النساء صامتات لأنهن خائفات كثيرًا. هيّا! تحرّكوا بسرعة! يصرخ القائد ثم يسير إلى الغرفة الخلفية كي يرتدي ثيابه وهذا ما يفعله باقي الجنود بدورهم. ثم نرفع الملازم ونحمله خارج البيت في الليل. المرأة التي عند البوابة نائمة ويبدو أنها لا تعرف شيئًا عما يجري في الداخل. لا أحد يخبرها بأي شيء لأن الرجال لا يحاولون سوى إبقاء جنودهم بين أفخاذهم وإمساك سراويلهم كي لا تسقط.

نحن هنا منذ ثلاثة أيام، والملازم لا يتحسّن. كل يوم يتولّى أحدهم تنظيف بطنه

بقماشة وماء وصابون، لكن هذا لا يفيده بشيء، فهو يرتعش طوال الليل. نتركه في المبنى الموجود في مخيمنا كي لا يهاجمه البعوض، وبما أنه لا يوجد الكثير من الأشخاص الذين يتجولون هنا وهناك، فلا خوف من سقوط المبنى. طوال ثلاثة أيام، كان هناك دائمًا أشخاص يراقبونه وهو يستيقظ وينام ويستيقظ وينام؛ لكنه لا يتكلّم أبدًا ووجهه يزداد شحوبًا.

نركع حول سريره، نعصر الماء البني على وجهه ونلقي الضوء من مصباح الكيروسين على عينيه. عيناه واسعتان جدًا لدرجة أننا نستطيع أن نرى مؤخرة رأسه من خلالهما. خلال الصباح، يتأوّه ويئنّ كأن روحه تكافح من أجل التحرر من جسده، وخلال المساء يرتجف ويرتعش كأن الجو شديد البرودة رغم أن الليل حارّ جدًا ونحن جميعًا نتصبب عرقًا. نراه على هذه الحال طوال الوقت ولا أحد يقول شيئًا.

استغرق الملازم ثلاثة أيام كاملة حتى مات، لقد مات عندما اكتمل القمر وتلألأ الليل كالفضة. نلقي جثته في مجرىً –أنا وستريكا والقائد ورامبو– وقبل ذلك، يأخذ رامبو ملابسه لأن القائد يقول إن رامبو هو الملازم الجديد. ثم نترك جثّته كي تأكلها الكلاب والقطط واليرقات والديدان. نتركه هناك وأنا أفكر بأنه حقّق أخيرًا رغبته في التوقف عن القتال. وأنا خائف لأنني أرى أن الطريقة الوحيدة للتوقف عن القتال هي الموت. أنا لا أريد أن أموت.

إنه الليل. إنه النهار. إنه الضوء. إنه الظلام. الجوّ حار جدًا. الجو بارد جدًا. الطقس ماطر. الطقس مشمس جدًا. الجو جاف جدًا. الجو رطب جدًا. لكننا نقاتل طوال الوقت. مهما يحدث، نحن نقاتل دائمًا. طوال الوقت الرصاص يلتهم كل شيء، الأوراق والأشجار والأرض والناس -يلتهم كل شيء- يجعل الناس ينزفون من كل مكان، والدم يتدفق في كل الأدغال. النزيف يجعل الناس يصيحون ويصرخون طوال الوقت، يصرخون منادينَ أمهاتهم وآباءهم، الرب والشيطان، يصرخون بلغة لا أحد يفهمها أبدًا. أحيانًا أغطي أذني كي لا أسمع الرصاص والصراخ وأحيانًا أكون مَن يصرخ ويطلق النار فلا أسمع عندها غير صوتي. أحيانًا أرغب في أن أبكي بصوتٍ عالٍ لكن لا أحد يبكي في هذا المكان. إذا بكيتُ فسوف ينظرون إليّ لأنه لا ينبغي للجندي أن يبكي.

نعاني من آلام في المعِدة طوال الوقت ونذهب لقضاء حاجتنا ونخرأ سائلًا. نحن جائعون جدًا ونقتات على ما نجده. السحالي... نأكلها. الحشرات... نأكلها، والأفضل من ذلك حين نجد الجرذان أو أنواعًا أخرى من الحيوانات التي تعيش في الأدغال. أحيانًا نأكل ورقة شجرة من هنا وأخرى من هناك، وهذه الأوراق تجعلُ بطني يُؤلمني لذا لا آكل الكثير منها. اللحوم أيضًا تسبب لي آلامًا في معدتي لأننا لا نستطيع استخدام الكثير من النار لطهيها، وإذا فعلنا ذلك، سيتمكن الأعداء من رؤيتنا وسيطلقون النار من مخابئهم علينا. أنا جائع دائمًا، جائع جدًا، لدرجة أنني أحلم دائمًا بدجاجة وأتخيّل كيف سآكلها وكيف سأقضم منقارها وأمضغ ريشها حتى. جائع جدًا لدرجة أنني أستطيع أن آكل الخشب لو أنه سيقلل من جوعي، لكنه يؤلم معدتي ويجعلني أتقيأ وأخرأ. جائع جدًا لدرجة أنني أستطيع أن آكل جلدي قطعة قطعة لولا أن ذلك سيجعلني أنزف حتى الموت. جائع جدًا لدرجة أنني أريد أن أموت، ولكن إذا متُّ فقد متُّ.

ثمّة الكثير من القصف والقنابل والمروحيات التي تأتي وتسلط علينا الضوء لتقتلنا. وطوال الوقت تهتزّ الأرض وتهتزّ الأشجار ويفوح الهواء برائحة الدخان، وتضجُّ أذناك بوم بوم بوم دون أن يكون لديك ثانية واحدة لإدراك ما يجري. مرّ وقتٌ طويل على هذا النحو. لم أرَ طريقًا أو قرية أو امرأة أو أطفالًا منذ وقت طويل. لا أرى سوى

الحرب، روح شريرة تستوطن الأدغال وتشعر بسعادة كبيرة لأنها طوال الوقت تأكل ما تريد –تأكلنا– وترى ما تريد أن تراه –القتل– لذا فهي تضحك فحسب ها! ها! ها!

تدمرت كل شاحناتنا بسبب القصف، لذا نضطر إلى المشي الآن، ولم يتبقَّ الكثير منّا. الناس يموتون هكذا كل يوم. الصبي الذي اسمه هوب مات بنيران القنبلة التي أصابت إحدى الشاحنات. والرجل، الذي كنا ندعوه داغر، مات لأنه داس على لغم جعل جسده يتمزق إلى نتف صغيرة كما يفعل النمل الأبيض بالخشب. مات غريوت بالملاريا التي جعلته يرتجف ويرتجف، ومات بريتشر حاملًا إنجيله بيد وساقه باليد الأخرى، مات وهو ينادي الرب: تعالَ خذني، تعالَ خذني! يموت الناس هكذا كل يوم. كل الذين أعرفهم ماتوا. حتى الجنود الذين لا أعرف أسماءهم ماتوا. وسط كل هذه الحرب، أفتقد بعضهم. أفتقد بعضهم.

القائد يساعد بعض الناس على الموت. لقد أطلق النار على ثلاثة أشخاص وصفهم بالخونة، بمن فيهم السائق الذي حاول الهربَ إذ لم تعد لديه شاحنةٌ ليقودها. بعد أن أطلق القائد النار على السائق، راح يضحك يضحك ويتكلم مع نفسه، ولا يستمع لأي أحد. ولا حتى للملازم الجديد رامبو. عندما أرى كل هذا، كل تلك القنابل القنابل، كل هذا القتل القتل، كل هذا الموت الموت، أفكّر الآنَ ونحن في الغابة بأن النمل فقط هو الذي لا يزال يعيش ويفعل شيئًا. أتمنّى لو أنني نملة.

والآنَ نحن نعيش تحت الأرض، في خنادق نحفرها داخل الطين الأحمر، ونعيش بها كالأفاعي والجرذان. حين يكون الطقس جافًّا، نشعرُ بالسعادة لأنه لم يعد هناك مياه في كل مكان، وبإمكاننا أن نقاتل فحسب. وحين تمطر، آه! يكون الوضع فظيعًا. فظيعًا جدًا. كأننا نعيش في بركة طين. أحيانًا يصل الماء إلى مستوى بطني وأرى انعكاسي يحدّق بي في كل مكان أذهب إليه. نبقى في هذا المكان لمدة طويلة. أنا متعب وجائع وأريد أن أغادر.

الكثيرُ من الضباب الذي يلفّ الناس مثل قميص إضافيّ. اليومَ، لا إطلاق للنار حتى الآن، وهذا يجعلني أفكّر: أوبا! انتهتِ الحربُ! انتهت الحرب! لكنني أفكر عندها: هل انتهت حقًّا؟ هذا البياض الذي يحيط بنا، كلنا، ولا يدعنا نتنفس بسهولة؛ يجعلني

أشعر بأن هناك مَن يريد أن يغزو صدري ويسدّ أنفي بالقطن. قدماي مغمورتان في الماء طوال الليل، وأطراف أصابعي اعوجّت مثل مخالب جرذ. ينام بعض الرجال متكئين على جدار الخندق وهم يعانقون أنفسهم ويضعون قمصانهم على رؤوسهم حمايةً من المطر. يرتعشون لأن ريحًا باردة تسري في كل المكان. من الصعب ألا تدوس عليهم لأنك تراهم يظهرون فجأة في الضباب. في غضون ثانية يصبح كل ما حولي أبيض وأركل قدم رجل سرعان ما يصرخ وهو نائم ولكن لا يستيقظ. تعلّمت أن أرى من خلال الضباب، فحرارة الأجساد تجعل الضباب أقلّ كثافة لذا أمشي بحذر حينها. بعض الرجال مستيقظون لأنهم يتولّون مهمة الحراسة طوال الليل وأنا أتحرّك ببطء شديد كي لا أزعجهم.

يقف ستريكا خارج مقر القائد الذي هو عبارة عن خندق أيضًا، ولكن هناك قماش أزرق مغطى بأوراق الشجر كي لا يتبلل مثلنا. يحمل ستريكا بندقية ثقيلة جدًا تجعل الجانب الأيمن من جسده يتدلى إلى الأرض. ينظر بعضنا لبعض سريعًا، ثم أحرك يدي لأزيل الضباب أمامي. لا أحب عيني ستريكا لأنهما حمراوان جدًا، ولا أسنانه لأنها بنية جدًا، ولا رأسه لأنه كبير جدًا، لكنه صديقي حتى لو كان بشعًا. يعطيني البندقية ثم يمرّ بجانبي.

أدخل المقر لأرى القائد نائمًا على صندوقه، وظهره يواجه الجدار الطيني، وحذاؤه ملقىً في الماء الموحل. تطفو أعقاب السجائر، والرماد، في الماء من حوله ويفوح كل شيء برائحة الدخان. آخذ نفسًا عميقًا كي أستنشقَ كل هذه الروائح لأنها تملأ بطني بطريقة ما وتجعلني لا أشعر بالجوع.

نمت لحية القائد بكثافة شديدة وباتت تغطي كامل ذقنه وخديه. حين يزفر تهتز هذه الشعرات. يبدو القائد كرجل متوحش ويتصرّف كمجنون. أتخيله يركض عاريًا في الأدغال ولحيته الطويلة تصل إلى قدميه وهذا يضحكني كثيرًا لكنني جائع جدًا. الضحك يؤلم بطني كثيرًا. القائد خائف جدًا من الجنود الآخرين لذا يقول إنه يجب النوم بعين مفتوحة وأخرى مغمضة. لهذا السبب نبقى أنا أو ستريكا واقفين خارج مقره حين يكون نائمًا. أنا إحدى عينيه. وستريكا عينه الأخرى.

ابتعد عن طريقي، هيا، يأتي صوت رامبو من الضباب ويتبعه رأسه فيما يتناثر بصاقه على وجهي. يخرج من البياض ليقف بجانبي تمامًا. أراه والبندقية معلقة على كتفه. بطني يعتصر ورقبتي تتخشب. أحمل البندقية التي أعطاني إياها ستريكا.

القائد نائم، أقول لرامبو. حسن، فلتوقظه، يردّ. أقف أمامه وأرشّ الماء على حذائه بالخطأ. أقول له: إنه متعب، لا تضايقه. ساقاي تهتزان تهتزان وقدماي باردتان جدًا، جدًا. ابتعد عن طريقي، يقول رامبو مرة أخرى ويخطو إلى اليمين، لذا أرفع البندقية بقوة وأقف أمامه مرة أخرى. حذاؤه غارق في الطين. إنه يستريح، أقولُ.

ينحني رامبو فأرى وجهه ولحيته السوداء الكثيفة والكبيرة. اسمع أيها الصبي الصغير. ابتعد عن طريقي. لسنا نلعب. لا أتذكر آخر مرة لعبتُ فيها.

ما كل هذا الضجيج؟ يقول القائد. سيدي، هذا أنا، يجيب رامبو. أيها الأحمق ألا ترى أنني نائم! بلى يا سيدي. إذًا فلتخرس وتعود إلى موقعك. لا سيدي، لن أفعل ذلك بعد الآن. ولماذا؟ لأننا سنغادر يا سيدي. مَن ومَن سيغادر؟ يصرخ القائد ثم أسمعه يضحك بهدوء في ظلّ المقرّ.

أمامي، أرى رامبو يبتلع ريقه بصعوبة كبيرة، وأحسّ بأن حلقي هو الذي يعاني. ومن أعماق مقر القائد، أسمع ضحكاته تعلو أكثر فأكثر حتى أحس بأنه يقف ورائي تمامًا. يدفعني جانبًا بذراعه فأصطدم بصخرة في الجدار. يؤلمني كتفي. من سيغادر. أحمق. عد إلى موقعك. ستغادر حين أقول لك غادر. هل تفهم؟ لا سيدي، إطلاقًا، يقول رامبو. نحن سنغادر. لا أريد متاعب. من هؤلاء الـ نحن، هاه؟ يسأل. من هؤلاء الـ نحن؟ يسأله القائد ضاحكًا. أنت الغبي الوحيد بما فيه الكفاية... -أنا ذاهب، يصرخ صوت. أنا ذاهب أيضًا. وأنا، وأنا، وأنا، الأصوات تأتي من خلال الضباب وتخفت شيئًا فشيئًا حتى يغدو صوت الشخص الأبعد ضعيفًا وهو يقول: وأنا. يضع رامبو إصبعه على زناد بندقيته وأنا أضع إصبعي على زناد بندقيتي لأنني أخشى مما سيفعله القائد بي إذا لم أحمِه، لكنني أتذكر كم كان يؤلمني بما يفعله معي. وأقول: لا. لن أشعر بالأسف عليه. لن أساعده. أخفض بندقيتي.

انظرا! نحن ذاهبون، يصيح رامبو في وجه القائد. ثم يرفع بندقيته ويطلق النار

عليه. رصاصة واحدة في صدره مباشرةً، وأرى القائد ينزل بصره إلى صدره وفمه مفتوح كأنه يصرخ. لكن لا صوت يخرج منه. لا يقول شيئًا. ثم يسقط جسده ويتحول الماء المتدفق في الخندق إلى اللون الأحمر.

يكفُّ رامبو عن الاهتزاز ويأخذ نفسًا عميقًا. ينظر إليّ وأنظر إليه. ينظر إليّ لفترة طويلة ثم يستدير ويتسلق الجدار وأسمع صوت حذائه وهو يسحق أوراق الشجر بجوار رأسي. ثم أنظر للأعلى وأرى كل الجنود يتسلقون الخندق وأسمع رامبو يصيح: تعال! تعال بسرعة بسرعة بسرعة! تحرّك بسرعة! بسرعة! إلى البيت! إلى البيت! سنعود إلى بيوتنا! أنظرُ إلى القائد ثم أتسلق الخندق. أنا متعب وجائع وأريد أن أعود إلى البيت.

مات القائد. كان من السهل جدًا قتله. لا أعرف لماذا لم نفعل ذلك من قبلُ، لكنني لا أريد أن أفكر بذلك الآن. أنا متعب للغاية.

نسير طوال الليل على هذا الطريق، يسارًا يمينًا، يسارًا يمينًا، يسارًا يمينًا، يسارًا يمينًا، حاملين كل ما نملك، بنادق وسكاكين وملابس، هذا كل شيء لأنه ليس لدينا أي شيء آخر. كيف لنا أن نحصل على أشياء أخرى ونحن في الأدغال منذ مدة طويلة؟ أنا متعب جدًا لدرجة أن تحريك ساقي أمر شاقٌ بالنسبة إلي، لكنني أتبع رامبو. وهكذا يفعل البقيةُ، نتبعه ونتبعه رغم أنه لا يملك خريطة مثل القائد. لا أحد يسير كالجنود، يسارًا يمينًا، يسارًا يمينًا، بل يمشون يمينًا يسارًا، وتقريبًا يجرون قدمًا أمام الأخرى على الأرض. يلتصق خفّاي بقدميّ لأنهما تالفان وممزقان. وقدماي تؤلماني لأن جلدي يتفسخ ويتقشر بسبب الوقوف الطويل في الخنادق الموحلة. أشعر كأنني أمشي على مسامير، وأريد أن أتوقّف كي أرتاح لكن لا أحد يتوقف. لا يتوقف ستريكا رغم أن وجهه تشقق بالكامل، وجسمه يرتجف طوال الوقت، لذلك أستمر في السير، أجرُّ قدمي اليسرى قليلًا واليمنى قليلًا، وأقول إنه طالما تمكّن ستريكا من فعل ذلك، فأنا أستطيع أيضًا. أسقط إلى الخلف وأشعر بخوف شديد لأن الرجل الذي أمامي يبدو كظلّ، لا كشخص، لذا أركض إلى الأمام وهذا ما يؤلم قدميّ أكثر. أتمنى لو أنني أملك حذاءً أو نعلًا قماشيًا كي لا تؤلمني قدماي كثيرًا. أو أكثر من ذلك، أتمنى لو أن لدي سيارةً تقلّني بعيدًا، ففي أثناء المشي أسمع داخل رأسي صوت سيارة وأنظر حولي بحثًا عن السيارة التي ستأتي وتنقذنا وتأخذنا إلى البيت. ليس هناك سيارة. أتخيل نفسي سيارة وأحاول أن أجعل قدميّ تتحركان كالعجلات التي لا تتوقف، لكنني لا أستطيع. أنا جائع وأريد أن أتوقف عن المشي وأستريح وآكل.

أينما نسير يتبعنا القمرُ. إنه كبير جدًا، وساطع جدًا لدرجة أننا لا نستخدم المصباح كي نرى، لذا لا أحد يخشى أن يرانا الأعداء أينما كانت مخابئهم في الأدغال. لا يمكنهم رؤيتنا طالما ليس لدينا مصابيح لأننا غير مرئيين، إلا إذا جاؤوا بالمروحيات التي تعصف بالهواء فننن فننن ووجّهوا مصابيحهم الساطعة على الطريق. أرى الأشجار وظلالها. أرى الصخور وظلالها وأقول: هيا، فلأذهب إلى هذه الشجرة أو إلى تلك الصخرة. اعتادت عيناي على الضوء، وبدأت أرى المزيد من الأشياء من حولي –

كل شجرة وكل صخرة وكل قطعة قمامة وكل نبتة نمت وحدها في وحل الطريق. أينما سرنا، ليس هناك سوى القمر يسطع جاعلًا المكان بأسره يبدو من زجاج وأننا سنكسره إذا ما لمسنا أي شيء بقوة. لا أحب ذلك إطلاقًا، إطلاقًا. الأشياء المصنوعة من الزجاج جميلة ورائعة، ولكنها تبدو ميتة رغم أن فيها حياة. كل شيء هنا يبدو ميتًا رغم أنه حيّ. العشب على جانبي الطريق، الأشجار وراء العشب، ذراعي أو ساقي، وجه ستريكا، رقبة رامبو –كلها تبدو ميتة وتجعلني أتساءل كيف يمكن لكل هذه الأشياء الميتة أن تكون حيّة. أرى كل شيء على الطريق– أراها كلها صلبةً كالزجاج، لكنني لا أستطيع أن أرى من خلال هذا الزجاج، وأنا أعرف أن العالم مليءٌ بالأشخاص والأشياء؛ مهما حاولنا التظاهر بعدم وجود ذلك.

أسمعُ أغنيةً. أحدهم يغني. أغنية قديمة كانت أمي تغنيها طوال الوقت حين تطبخ أو تغسل. أغنية! أغنية! لم أسمع موسيقى منذ فترة طويلة، ولا حتى صوت عصفور. سماع هذه الموسيقى يجعل جلدي كله يحترق، وأرغب في أن أحكّ نفسي، بأكملي، في كل مكان من جسدي. أشعر برغبة في الرقص، لكن هل ما زال جسدي يتذكر كيف يفعل ذلك؟ لا أظن. أحزن بسبب هذا الأمر. ماذا حدث للموسيقى ولكل الأغاني التي كنا نعرفها؟ لا أعرف، لا أعرف.

أمشي بسرعة، محاولًا أن أعرف من الذي يغني كي أسير بجانبه، وأشعر بالموسيقى أكثر. أمشي من شخص نحو آخر، لكني لا أسمع أي صوتٍ آتٍ من أفواههم. أشعر برغبة في أن أذهب إلى الشخص الذي يغني، وآخذ منه الموسيقى والأغنية وأحتفظ بها في جيبي من أجل الأوقات التي تسوء فيها الأمور كثيرًا؛ لكن الصوت الذي أبحثُ عنه لا يأتي من أيّ مكان. لا يهمّ أبدًا، لأن الأغنية تجعل جسدي يتحرك، ولذلك لا حاجة لي بالتفكير في أي شيء. أستطيع أن أفكر في أشياء أخرى تخطر لي. لا أهتم بالبندقية التي تؤلم ظهري من شدة ثقلها. بل أفكر بالبيت. كم مرة فكرت ببيتي حين كنا في الأدغال؟ كم مرة تخيلت، في رأسي، الناس الذين نشأت بينهم يركضون كما يركض الأطفال بعد المدرسة، كما يركضون إلى بيوتهم، كما يركضون إلى الكنيسة، كما يركضون إلى السوق وكأن ليس هناك حرب وكل شيء على ما يرام! في رأسي، كل أبناء قريتي سعداءُ جدًا وهذا يجعلني أفكّر: إذا كانوا

يعيشون هكذا، فلماذا أظلّ أنا هنا؛ أمشي نحو مكانٍ لا أعرف إذا كنت سأموت فيه أو سأبقى حيًا؟ لا أعرف. لا أعرف.

نحن متعبون للغاية، لكننا نحاول الوصول إلى مكانٍ ما. أين هو هذا المكان؟ لا أعرف، لكنني أعرف أن رامبو يقول إننا لا يجب أن نتوقف. لذا نحن لا نتوقف، ونتابع المشي طوال الليل وحتى النهار. تشرق الشمس من خلفنا وتسقط ظلالنا أمام أقدامنا فيظلم الطريق ويصعب علينا التقدم خطوة أخرى. على الطريق، أرى الفراغَ الهائل وأتساءلُ أين ذهب كل الناس لأنني لا أحبُّ كل هذا الهدوء، لا أحبُّ أن يكونَ الصوتُ الوحيد المسموع -خلال النهار- هو صوت ارتطام خُفيّ بقدميّ، حيث آخذ نفسًا عميقًا في كل مرة أسمع فيها هذا الصوت لأني أتألم كثيرًا. لا أستطيع أن أتوقف لذا أستمرّ في المشي. عندما أسمع أي ضجة، حتى لو كانت مجرّد تمتمة من أحدهم، أقول لنفسي إنه يجب عليّ الإمساك بهذا الضجيج. لذلك كلما أصبحت هذه الضجة أقل صخبًا، أمشي بسرعة أكبر لأقبض عليها أينما ذهبت. لا يمكنهم تركي لأنني لا أعرف إلى أين أذهب في هذه الأدغال. أتخيل لو تركوني في هذه الأدغال وأكلني حيوان أو أمسكني أحد الجنود وضحّى بي من أجل كسب الحرب. أفكّر في نوع الحيوان الذي سيطاردني إذا تخلّوا عني. له جسد أسد ورأس جندي يرتدي خوذةً، وعينان تشبهان رصاصتين وأسنان كالسكين سوف تسحقني. ذيله كالبندقية وأنفاسه الناريّة ستشويني جيدًا؛ قبل أن يجلس ليأكل الأجزاء المحترقة من جسدي. وحين يخطر في بالي ذلك، أسرع في السير كي لا أكون الأخير في الرتل.

العَرق يحرق عينيّ. الجو حار جدًا لأن الشمس تلسع ظهري وتسخّن بندقيتي كثيرًا حتى تصبح كمكواة ساخنة تلتصق بظهري. أعرف أنها تترك أثرًا على ظهري وتحرقه، لذا أصبح كبقرة تنتمي إلى مالك وحيدٍ... هو البندقية. أحزن كلما أحسست بهذه البندقية على ظهري، لأنني أتذكر في بداية الحرب حين رغبت بامتلاك البندقية كي أحمي نفسي. في ذلك الوقت، البندقية كانت ملكي وتذهب معي أينما ذهبت، أما الآن فهي محمولة على ظهري كالملكة وأنا كالخادم أفعل ما تأمرني به. إذا قالت لي اذهب إلى اليمين، يتجه جسدي إلى اليمين رغم أنه من الصعب علي أن أتجه يمينًا، وإذا طلبت مني أن أتوقف، سأتوقف لالتقاط أنفاسي، وإذا نزلت إلى أسفل التل مع

باقي الرجال؛ ستطلب مني أن أنزل بشكل أسرع وتدفعني كيفما تريد. لا أحبّ ذلك على الإطلاق وأرغب في أن أرمي بندقيتي في الأدغال، ولكن إذا رميتها فسيرميني رامبو لأن البندقية أهمّ مني. أتذكر هذا الشيء دائمًا.

الطريق طويل جدًا، ولكن يحلو لي النظر إليه أحيانًا. أحبّ كيف يصعد ويهبط مثل حيوان، كيف يتحرك مع الأرض التي يمتد عليها. إذا رأيت هذا الطريق أثناء شروق الشمس، سترى كم هو كبير، وكيف أن كل الأشجار تحترمه وتحاول ألا تنمو عليه. هناك أشياء صغيرة صغيرة لا تحترم الطريق، نباتات صغيرة وحيوانات صغيرة هنا وهناك صدمتها السيارات؛ وتُركت في مكانها منذ وقت طويل. أخاف لأنه لا يوجد سوانا على الطريق، وهذه النباتات الصغيرة التي لا تحترم الطريق، ولأنها لم تحترم الطريق فقد قتلها، وطالما بقينا لا نحترم الطريق ونقضي حاجتنا ونبصق في كل مكان، فأنا أخشى أن يقتلنا الطريق أيضًا.

بينما نحن نسير، أشعر بطعم الملح في فمي، الكثير من الملح لدرجة أنني لم أعد أحبّ طعمه أبدًا. إنه يجعلني أعطش كثيرًا وهذا أسوأ بكثير من الجوع، لأنه يجعل رأسي يميل من جانب إلى آخر ويجعل العالم كله يدور، ويدور حولي كأنني أفتلُ في دائرة. تارة أرى ستريكا يمشي أمامي ببطء شديد، وتارة أراه خلفي يمشي بسرعة كبيرة. أعتقد أنني مجنون.

نواصل السير لأنَّ هذا ما علينا أن نفعله، ونرى كل الأشياء تمرّ بجانبنا على الطريق. بيوت، أشجار، مدارس، سيارات فارغة ومحترقة، قمامة، كلها تمرُّ بنا، لكننا لم نرَ أي شخص بعدُ. نصل إلى قرية أخرى، لكنها صغيرة، ليست قرية حقيقيةً. هناك بعض البيوت الفارغة على جانبي الطريق، ولا شيء سوى القمامة. الناس يهربون منا كأننا مرض، كأننا الشيء الأكثر شرًا في هذا العالم. أنظر إلى الطريق المتشقق في أماكن عديدة، وكأن أحدًا سحبه ومدّده حتى ترى الطين الأحمر ينزف أسفله. وفي كل مكان هناك قمامة تتحرك على طول الطريق كأنها أناس يتنقلون ويتنقلون لأن ليس لديهم ما يفعلونه. نواصل السير إلى أن يدوس ستريكا على زجاجة مكسورة ويسقط أرضًا. لا يقول أية كلمة، ولا يبكي ولا يصرخ. كأنه لا يشعر بأي ألم، لكنني أتألم

من أجله وأريد أن أصرخ وأبكي. يمشي الجنود الآخرون بجانبنا ولا ينظرون إلينا. ستريكا. ستريكا، أقول. علينا أن نمشي وإلا سيتركوننا. لكنه لا يسمعني. بل يأخذ قدمه ويسحب الجلد حتى يخرج الزجاج. ثم يلعق إصبعه من الدم والرمل ولكنه يحرص على ألا يلمس الجروح التي على شفتيه. يمد يده لي فننهض ونعاود السير. خطوة. خطوتان. يسقط. لماذا يفعل ستريكا ذلك؟ علينا أن نذهب، لكنه لا ينهض. انهض! ينظر إلي ويسعل إلى أن يبصق على الأرض الدم واللعاب، الكثير من الدم.

أطلب منه أن ينهض، لكنه لا يسمعني ولا ينهض. شفتاه تتحركان، لكن لا صوت يخرج. أنظرُ إليه. وجهه يلمع، يلمع كأنه يتعرق كثيرًا، لكن العرق لا يخرج منه. أركع على الطريق بجانبه وأشاهد الجنودَ الآخرين يسيرون بعيدًا عنا. أشعر بقلبه يخفق يخفق كأن سكان قرية بأكملها يخبطون بأقدامهم على الأرض. آه آه! ستريكا، أقول. آه آه! ماذا يحدث؟ لكن لا تخرج أي كلمة من فمه. عيناه ترفّان، وعيناي ترفّان، وأراه يتلوّى. أنهض وأتظاهر بأني سأغادر. لا تتركني! يقول وهو ينظر إلي. أصرخ في وجهه: هيا! انهض وكفّ عمّا تفعله! أسمعه يقول: لا تتركني! أرجوك يا آغو. لا تتركني. ستريكا يقول ذلك. هاه! ستريكا يقول ذلك! أتوقّفُ عن الحركة وألتفتُ إليه، أنظر إليه وينظر إلي، ولكن يبدو وكأنه لا يراني.

أنحني نحوه، وأرى جسده الذي يكاد يتلاشى تحت ملابسه. وجهه يبدو رهيبًا لأن جلده قد ذبُل وعينيه انقلبتا للأعلى، ويظهر اللون الأحمر والأصفر في كل مكان فيهما، مثل لون البول والدم. يبدو ستريكا كقطعة من القمامة على هذا الطريق. أحاول أن أبكي، لكنّ عينيّ لا تذرفان الدموع، وأحاول ألا أخاف، لكن ستريكا – ستريكا هو أخي وعائلتي والشخص الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث معه حتى لو أنه لم يعد يرد عليّ الآن. أشاهده ثم أرفع نظري لأنني لم أعد أسمع أصوات باقي الجنود الذين يسيرون على هذا الطريق. لا أريد أن أُترك. ولا أريد أن أترك ستريكا. ستريكا ستريكا، أنادي باسمه. لكنه لا يجيب. إنه لا يقول شيئًا. أنادي: ستريكا؟ ستريكا؟ ستريكا؟

لم يعد أيّ شيء كما كان. لم أعد أستطيع النوم عندما يحين وقت النوم. كلما استلقيت صرخت الأصوات في رأسي، مسببةً فوضى كبيرة تجعلني لا أستطيع أن أغلق عيني حتى. وفي كل مرة يحدث فيها ذلك يزداد خوفي لأني لم أعد أعرف نفسي. إذا كان الوقت نهارًا، أجلس وأحدق في الشمس كما لو أنها الشيء الوحيد الذي يمكن رؤيته في هذا العالم. أراقب كيف تكون ساطعة أحيانًا، وكيف تكافح كثيرًا حتى تشرق في أحيان أخرى، وأريد أن أسألها لماذا تفكّر في الإشراق على هذا العالم. لو كنت أنا الشمس، لبحثت عن مكان آخر أشرقُ عليه، مكان لا يستخدم فيه الناس ضوئي كي يفعلوا أشياء فظيعة، فظيعة. ليلًا أحدق في القمر وأحاول معرفة ما إذا كان هناك حقًا رجلٌ يبتسم. يقولون إن رجلًا يعيش هناك ويبتسم، لكنني لم أرَ شيئًا على الإطلاق. لا أحد يبتسم في هذا المكان. سواء كان الليل، أو النهار، لا أحد يبتسم.

لذلك أقول لنفسي، مرات كثيرة، إنني سأهرب بعيدًا بعيدًا حيث لن يتمكن أحدٌ من العثور عليّ، أو رؤيتي. وسأبقى هناك حتى نهاية الزمن، حين يأتي الرب لمحاسبة الموتى والأحياء. أقول ذلك لنفسي مرات كثيرة، لكنني حين أنهض للذهاب والهرب، أفكر في كل الحيوانات والأرواح الموجودة في الأدغال، وأتذكر الخريطة التي رأيتها في المدينة وأفكر بيني وبين نفسي: كيف يمكنني أن أهرب إذا كنت لا أعرف الطريق الذي يمكن أن يأخذني بعيدًا عن الحرب. كل ما بوسعي فعله هو أن أجلس هنا وأحلمَ بأن ساقيّ تحملاني بعيدًا وبكل سرعة، كأنني واقفٌ والعالم هو الذي يتحرّك لمساعدتي. أحلم بهذا مرات كثيرة؛ لكنني أنتظر حدوثه.

ذات يومٍ، ونحن على الطريق، سمعنا ضجيجًا يشبه صوت شاحنة، لذا انتشرنا في الأدغال، واتجهنا جميعًا إلى جانب واحد مندفعينَ بسرعة نحو ظلال الأشجار والأوراق، ندوس على غصن شجرةٍ هنا وصخرة هناك، ونركض نركض حتى لا يرانا كائن من كان، وإلا فربّما يقتلنا. أركض وأركض دون أن أتبينَ موضع قدميّ حتى بااوو أتعثر بشيء ما، ويسقط جسدي بووم هكذا على الأرض. ركبتي تؤلمني لأنني سقطتُ بقوة، لذا أنظر إلى الأسفل لأرى ما الذي جعلني أتعثر. أرى جثة ميت مستلقٍ على الأرض كأنه نائم. الرجل متيبس وبطنه ممتلئ بالغازات. كبير جدًا لدرجة أنه

يضغط على زر الرداء الذي يبدو على وشك الانفجار. أنظر إلى الرجل لأن شيئًا ما يخبرني بأننا نقترب من الحرب.

يرى جندي آخر الجثة أيضًا ثم يركع بجانبي ويبدأ فك أزرار القميص. الحشرات في كل مكان. خنافس لامعة بظهور فضيّة ويرقات ديدان بيضٌ تزحف أعلى وأسفل صدر الميت. يقلب الجندي الجثة ويخلع عنها القميص ويلفّه ويضعه تحت ذراعه. يذهب إلى ساقيه ويخلع الحذاء ويضع خفّيه على قدمي الرجل. ينظر إلي ويبتسم فتنكشف أسنانه البنية ثم يركض بسرعة ليلتحق بالجنود الآخرين. أراه يركض بعيدًا وأريد أن أركض خلفه لأنني لا أريد أن أبقى في هذا المكان مع جثة ميت. لكن ساقاي لا تنهضان. أفكر أفكر وأسأل نفسي: إذا كنت أقتل الرجال والنساء وأضربهم حتى تغطي دماؤهم جسدي كله، وإذا كنت أرى صديقًا جالسًا على الطريق يرتجف كأن الشيطان يتملكه، فلماذا أريد أن أبكي وأتقيأ لمجرّد رؤية جثة رجل ميت؟

ثم أفكر في كل الأشياء التي فعلتها. حين أمروني بالقتل، كنت أقتل، وحين أمروني بإطلاق النار، كنت أطلق النار، وحين أمروني بالدخول بامرأة، كنت أدخل بها ولا أقول شيئًا حتى لو لم يعجبني ذلك. كنت أقتل كل الناس، الأمهات والآباء والجدات والجدود والجنود. لا فرق. لا يهمّ من هم الأشخاص، بل أن يموتوا فحسب. أفكر وأفكر. أفكر بأنني لن أستطيع فعل ذلك بعد الآن.

ثم أنهضُ من حيث أنا جالس، وأمسح بسروالي الوحلَ عن يدي. أنظر إلى بندقيتي وأقول لها: لا أحتاجك بعد الآن. ابقي حيث أنتِ. تؤلمني كثيرًا الكتف التي كانت البندقية معلقةً عليها، لكنني أشعر بها سعيدةً لأنها لم تعد مضطرةً لأن تطيع البندقية بعد الآن.

لا أحد يراني وأنا أنهض وأمشي عبر الأشجار إلى الطريق. أشعر بنسمات الريح تدفع ظهري للمشي بعيدًا بعيدًا عن هنا، فأذهب بسرعة، بسرعة في الطريق الذي سأسير وأسير فيه إلى حيثُ تغرب الشمس. أنظر إلى الشمس وأريد أن أمسكها وأعصرها بقوة بين يدي حتى تخرج منها آخر قطرة لونٍ إلى الأبد. بهذه الطريقة سيحلُّ الظلام في كل مكان، ولن يستطيع أحدٌ أن يرى شيئًا من الفظائع التي تحدث

في هذا العالم.

في الجنة، أعتقدُ أنّ الصباح دائمٌ. لا يهمّ متى أستيقظ، فهناك دائمًا إحساس بالدفء يأتي مع ضوء الشمس عبر النافذة، وصوت العصافير التي تغرّد على الأشجار في الخارج، وصياح الديك ككوكوو، ورائحة الدخان القادمة من مكان إشعال النيران. كل شيء جديد. كل شيء طازج. هكذا أشعر في كل مرة أستيقظ فيها في هذا المكان.

لا أعرف كم من الوقت قضيته هنا، لكنها فترة طويلة –بضعة أسابيع، بضعة أشهر– لا أعرف! لا أعرف إلا كيف أشعر هنا. من نافذتي، إذا وقفت على سرير، أستطيع أن أرى المحيطَ وأسمع صوت مياهه. وطوال الوقت أستطيع أن أسمع الريح تتحدث عندما تهبّ عبر نخيل جوز الهند الشامخ أمام المحيط. أنهض كل صباح وأذهب للمشي على الشاطئ، يخدشُ الرملُ الجلدَ بين أصابع قدميّ حتى يصبح أحمرَ حقًا. وكل صباح أنظر عن قرب إلى كل شيء هنا، وأرى السلطعون يركض في الرمال والفطر ينمو على جذع النخلة. أحيانًا أرى كيف يأكل النمل ثمرة جوز الهند التي سقطت، وكيف أن نبتةً جديدةً تنمو في كل مكان هنا. حين أرى هذه الأشياء، أعتقد بأن كلَّ شيء جميل جدًا. كل شيء على ما يرام.

لا داعي للقلق بعد الآن بشؤون الحرب، كالقنابل والقصف والموت. في الليل ننام في الداخل تحت المروحة بدلًا من النوم خارجًا في الحرّ أو المطر. يقدمون لنا الكثير من الطعام ويخبروننا أننا نستطيع الجلوس لتناوله على الطاولة في الغرفة ذات الجدار المطلي بالأزرق والأرضية البيضاء. يقدمون لنا الكثير من الطعام، أكثر مما نريد. ليس علينا أن نطلب إذا كنا نحتاج المزيد. إنهم يسمحون لنا بأخذ ما نريد. البلانتين والأرز واللحوم والدجاج والأسماك – أي شيء نريده نحصل عليه. أحيانًا آكل حتى لو لم أكن جائعًا جدًا لأنني أخشى أن ينفدَ الطعام ولا يتبقى لي ما آكله في اليوم التالي.

استعدتُ قوتي. ذراعاي وساقاي تحملانني من جديد، وحين أمشي لا تطقطق عظامي ولا أشعر بأن المكان يدور من حولي. أرتدي ملابسَ جميلة – قميصًا أبيضَ جديدًا مع خطوط سودٍ على الصدر وسروالًا أزرقَ جديدًا يناسب جسدي كثيرًا.

أحبُّ هذه الملابس كثيرًا لأنها نظيفة وجافة ليس بها ثقوب بسبب الرصاص وليس عليها دماء مَن كان يرتديها. حين أنتهي من الاستحمام في الصباح، أسرع إلى ارتداء ملابسي كي يرى الجميع كم أبدو جميلًا بها.

أعطوني غرفة تخصني، فيها سريري الخاص وطاولتي التي توجد تحت النافذة ويدفئها ضوء الشمس. أعطوني كل الكتب التي أريد قراءتها لأنني أخبرت آمي أن أبي كان معلّم مدرسة، وأنني كنت دائمًا أقرأ كل ما أستطيع قراءته قبل الحرب. أعطوني الكثير من الورق وأخبروني أنني أستطيع أن أكتب وأرسم ما أريد؛ لذا أرسم مدرسة كي أتمَّ دراستي وأصيرَ طبيبًا أو مهندسًا.

ثمَّة كاهنٌ، يرتدي الرداء الأسود ذا الياقة البيضاء، يحضرُ كلَّ أحدٍ وأربعاء. يدعو نفسه الأب فيستوس وناديه بهذا الاسم. إنه نحيل جدًا لكن لديه خدّان منتفخان ينطويان على بعضهما ويتدليان إلى الأسفل، وأنف يغطي كامل فمه. يرتدي نظارات شمسية دائمًا لذا لم أرَ عينيه قطُّ. أحيانًا أتساءل عمَّا إذا كانت لديه عينيان. يقول: ارجعوا إلى الرب. صلوا إلى القادر على كل شيء كي يغفرَ لكم. يقول الأب فيستوس دائمًا إن الاعتراف والغفران والقيامة هي الأشياء الوحيدة التي نحتاجها كي نمنحَ حيواتنا جوهرَ الحياة.

أفكر دائمًا بالاعتراف والغفران والقيامة، لكني لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمات. إنها لا تعني لي شيئًا حين يقولها. الشيء الوحيد الذي يعني لي هو الذكرى التي أحتفظ بها عن صبي آخر –ستريكا– حين كان ينام بجانبي، صبي قريبٌ مني كثيرًا لأننا كنا نحمي بعضنا بعضًا من كل شيء يحاول قتلنا. أتذكر صوت الناس وهم يسعلون ويصرخون، ورائحة البراز والموتى في كل مكان. هذا الشيء الوحيد الذي أعرفه. لذا أسأل الأب فيستوس عن الاعتراف والغفران والقيامة فيقول لي: قبل كل شيء يا بني، آمن بالرب وثق به؛ لأنه سيساعدك على أن تفهم كل هذا. هل لديك نسخة من الكتاب المقدس؟

نعم لدي إنجيلي، لكنني أستخدمه ثقّالةً لتثبيت رسوماتي على الطاولة كي لا تطيرها المروحة هنا وهناك.

رغم أنني لا أفهم كل شيء يقوله، لكنني أواصل الاستماع إليه، لأنه يقول إن الرب لا يزال حيًا في هذا المكان. لا أعرف ما إذا كنت أصدّقه، لكنني أحب أن أسمع منه ذلك.

أتحدّث كل يوم إلى آمي. آمي امرأةٌ أميركية بيضاء، جاءت إلى هنا لتساعد أمثالي. أسنانها صغيرة جدًا ولسانها طويل جدًا بالنسبة لحجم فمها، لذلك فهي تتحدث من خلال أنفها، لكن أنفها صغيرٌ جدًا؛ لذا يصعب عليّ أحيانًا أن أفهم ما تقوله. في أغلب الأوقات لا تتحدث آمي، بل تجلس أمامي على كرسيها. تجلس على كرسيها وأنا أجلس على كرسيي وتستمرّ في النظر إليّ كما لو أن النظر إليّ من شأنه أن يساعدني. تطلب مني أن أتحدث وأتحدث وأتحدث، وتظن أنني لا أتحدث لأنني مثل الأطفال الصغار. إذا كانت تظن أنني طفل، فلن أتحدث لأن الأطفال لا يستطيعون ذلك. ولكن في كل مرة أجلس معها أتخيل نفسي رجلًا عجوزًا وهي فتاة صغيرة لأنني قاتلت في الحرب أما هي فلا تعرف ما هي الحرب.

تقول لي، باستمرار: أخبرني بماذا تشعر. أخبرني بماذا تفكر. وكل يوم أقول لها الشيء نفسه: أفكر بمستقبلي. ما هو مستقبلك؟ تسألني. وأقول: أرى نفسي طبيبًا أو مهندسًا، وأجني الكثير من المال من أجل أن أصبح رجلًا كبيرًا ولا أقاتل في الحرب مرةً أخرى. وأحيانًا أخبرها: أسمع صوت رصاص وصراخ في أذني وأريد أن أموت لكيلا أسمعَ ذلك مرة أخرى. أريد أن أستلقي على الأرض الدافئة، وأغمضَ عينيّ وأشمَّ رائحة الوحل، مثل ستريكا. أريد أن أشعرَ برطوبة الأرض حول جسدي كأنني أتعرّق، وأشعرَ بأن الأرض تتعرقُ من خلالي. أريد أن أبقى في هذا المكان إلى الأبد، لا أتحرك مطلقًا، بل أنتظر وأنتظر حتى يتراكمَ الرمل فوقي ويغطيني العشب وتبني الحشرات بيوتها بين أسناني. أخبرها أن شجرة إيروكو ستنبتُ من جسدي، كبيرةً جدًا لدرجة أن جذعها سيفصل الليلَ عن النهار، وطويلةً جدًا لدرجة أن الأوراق في قمتها ستدغدغ القمرَ كي يبتسمَ الرجل الذي يعيشُ هناك.

أخبرها أحيانًا بأنني لا أحكي لها الكثير لأنني أعرف أشياء من المروّع قولها. رأيت أشياء فظيعة أكثر مما رآه ألف رجل، وقمت بأشياء فظيعة أكثر مما قام به ألفا رجل.

وإن قلت هذه الأشياء فسأحزن كثيرًا وستحزن هي كثيرًا في هذه الحياة. أودّ أن أكون سعيدًا بكل ما أراه في هذه الحياة. أودّ أن أكون سعيدًا فحسب.

بعدما أقول كل هذا، تنظر إليّ وأرى قطرات ماء في عينيها. لذا أقول لها: إذا أخبرتك بتلك الأشياء فستظنين أنني وحش أو شيطان. لا تقول آمي شيئًا حين أخبرها بذلك، لكن قطرات الماء تلمع في عينيها. أقول لها: حسنٌ. أنا كل ذلك. أنا كل ذلك، ولكن كانت لدي أمّ ذات يوم، وكانت تحبّني.

Telegram:@mbooks90

شكرٌ وعرفان

أشكرُ للجنة زمالة كيغن وبرنامج ميلون سخاءهم.

شكري وحبي لـ:

• مرشدتي جاميكا كينكد على كل شيء. لحماستكِ وتحفيزكِ وتوجيهكِ كل تقديري. من دونك، لم يكن هذا ليحدث قط.

• معلمتي الأولى في الكتابة، باتريشيا باول، لإعطائي فرصةً للاستكشاف، ومنحكِ لي من وقتك كي ترشديني إلى ماهية الكتابة. من دونك، لم يكن هذا ليحدث قط.

• أسرتي: بابا وماما لتفهُّمكما المستمرّ لما يعنيه هذا بالنسبة لي؛ أوني وأوكي وأوش لسماعكم أفكاري (وتحمُّلكم عدم غسلي الأطباق أبدًا)؛ العم تشي-تشي والعمة أوجو لاستقبالي وضيافتي خلال الصيف؛ العم تشود ودابو لإبقائي على المسار الصحيح في عملي؛ العم أماتشي على النكات وطبق السيريه اللذيذ؛ ولجديّ وجدتيّ وكل أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي وأبنائهم على المحبة والعشرة.

• سيمي والعمّة كين لإيمانكما واعتنائكما بي، ومساعدتي في فهم ما معنى أن تكونَ من المكان الذي أنت منه.

• أصدقائي: جميعكم ما كان يبخل بقول الأشياء الطيّبة حتى دون قراءة كلمة واحدة مما كتبت. نينا لدعمها الذي لا يكلّ وتحريرها وتدقيقها الحثيث (لقد انتهينا أخيرًا). إيان لكونك قدوة عظيمة (حين أكبر، أريد أن أكون مثلك تقريبًا). أدلين وبينيتا وإليوت وروبن وثينجي للترويح عني (ابقوا كما أنتم إلى الأبد!). وشاتو لوجودك وتفاوضك معي (حرق شريط الفيديو). وهارون وإسماعيل لمكانتكما عندي.

• وكيلَيّ: جيف وتريسي لصبركما ولطفكما المذهل.

• محرّرَيّ: آنيا وتيم لصبركما ولطفكما المذهل.

امتناني العميق لكم جميعًا!

ملاحظة المترجم

أشكر للسيد مازهون إدريس، المتخصص في لغة الهاوسا (لغة محلية في إفريقيا)، مساعدته في فهم بعض الكلمات والتعبيرات في النصّ.

---

(1) الماشيتي: أداة تقطيع كبيرة [بين الساطور والمنجل] تستخدم في الدول الاستوائية، لقطع الأشجار المتشابكة، أثناء السير في الغابات المطيرة؛ كما استخدمته الميليشات الإفريقية على نطاق واسع في ارتكاب جرائمها.